

تاريخ مصر في العصر العثماني

دكتور

عبد المنعم إبراهيم الجميحي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

o b e i k a n . c o m

تاريخ مصر فى العصر العثمانى

د/ عبد المنعم إبراهيم الجبىسى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

مقدمة:

ظلت الفترة ما بين سقوط سلطنة المماليك فى مصر ١٥١٧م ودخول الفرنسيين عام ١٧٩٨م حائرة بين مؤرخى مصر الإسلامية ومصر الحديثة خاصة وأن معظم المؤرخين يعتبر أن الحملة الفرنسية هى البداية الحقيقية لتاريخ مصر الحديث بينما يقف مؤرخو مصر الإسلامية عند الغزو العثمانى لمصر ونظرا لأهمية دراسة هذه الفترة التى تعرف بمصر العثمانية باعتبارها المرحلة التى تمت على أثرها كافة التغيرات التى برزت من خلالها ملامح مصر الحديثة فقد رأت كليات الآداب بالجامعات المصرية ضرورة التواصل وسد الفجوة التى تفصل بين تاريخ مصر الإسلامية وتاريخ مصر الحديثة بتدريس تاريخ مصر فى العصر العثمانى خاصة وأن مصر خلال هذه الفترة كانت تعد ولاية عثمانية ذات أهمية متميزة نظرا لموقعها الجغرافى المتميز بين الولايات العربية الأخرى ولكونها مركزا لقوافل الحج الوافدة من بلاد المغرب، هذا بالإضافة إلى أن الدولة العثمانية كانت تعتمد عليها فى تنفيذ سياستها فى الحجاز خاصة وأن الكثير من الأوقاف المصرية كانت محبوسة على الحرمين الشريفين.

وقد اتسمت الحياة المصرية فى العصر العثمانى بأنها كانت إسلامية فى معالمها الرئيسية، كما اتسم الحكم العثمانى فى مصر بأنه كان حكما عسكريا خاصة وأن الحاميات العثمانية كانت أداة للحرب والحكم معا.

وقد ذاقت مصر الكثير من مساوئ الحكم العثمانى خلال سنواته الطويلة فتركت غيمة باردة يستبد بها الباشوات الذين كانت تعينهم الأستانة، كما تأثرت مواردها بالتهب والسلب من ناحية وبالإهمال من ناحية أخرى خاصة وأن الولاة

الذين كان يعينهم السلطان العثماني على مصر لم يهتموا بمصالح البلاد والعباد بل كان كل همهم التنازع من أجل المحافظة على الرياسة.

وظلت الدولة العثمانية حافظة لمركزها لفترة، ثم تطورت الأحوال تدريجيا حتى أصبحت سيادة الباب العالي اسمية تقريبا وازدادت سلطة المماليك، ولم يعد للسلطان من نفوذ سوى الدعاء له في خطبه الجمعة، وأداء الجزية (الأموال المقررة) وضرب النقود باسمه.

وبالنسبة للزراعة فقد كانت تقوم على رى الحياض مع رفع المياه بالسواقي والشواذيف، وكانت مصر تزرع المحاصيل اللازمة للاستهلاك المحلي، وكان يصدر إلى الخارج جزء منها، وأهم هذه الحاصلات القمح، والذرة والكتان، والأرز والقصب، والعدس، والبلح والقطن. وقد اسند استغلال الأراضي الزراعية التي تم تقسيمها إلى مقاطعات إلى وكيل يديرها بإحدى طريقتين:

الأماتة: وهي نسبة إلى أمين (كاشف) يدفع له مرتب مقابل استغلاله الأرض التي يقوم بتوريد عاندها إلى الخزانة.

الالتزام: وهو الغالب... حيث يقوم الملتزم باستغلال الأرض ويورد جزءا محدودا من العائد للخزانة ويحتفظ لنفسه بالباقي مقابل استغلاله الأرض.

أما التيمار - أى الإقطاع - الذي انتشر في جميع الولايات العثمانية، والذي كانت الأرض تسند فيه إلى شخص يقوم باستغلالها لحسابه الخاص مقابل خدمات عسكرية أو حكومية - فلم يطبق في مصر⁽¹⁾، باستثناء بعض الشغور التي كانت تسند إلى قواد الأسطول العثماني المتمركزين فيها.

ولما كانت الزراعة تعد بمثابة المصدر الأول لثروة مصر القومية فقد أدى إهمالها إلى اختلال أحوال مصر الاقتصادية في ذلك الوقت.

(1) Shaw: Ottoman Egypt 1517-1798, P. 26-27.

وبالنسبة للصناعة فقد قامت في مصر صناعات متعددة كان أهمها صناعة النسيج والقطن والصوف والكتان والحرير^(١)، وكان من أهم مراكز نسيج القطن المحلة الكبرى، وبنى سويف، أما نسيج الكتان فقد كانت تتركز صناعته في بعض مدن الدلتا والفيوم .

وقد اشتهرت الفيوم بصناعة نسيج الصوف وصنع الشيلان، وكانت مصر تستورد خيوط الحرير حيث يتم نسجها في مدن الدلتا والقاهرة ثم يعاد تصديرها إلى سوريا. وقد ترتب على صناعة نسيج الحرير قيام صناعات أخرى فرعية منها صناعة الأصباغ، حيث اشتهرت مصر بإنتاج "صبغة الورد" بصفة خاصة، كما قامت أيضا صناعة الكلف والعقد والتطريز.

وكذلك قامت صناعة "الكليم" وهي صناعة للسوق المحلي وإن اشتهرت الفيوم ومنوف بصنع نوع راق منها كان يصدر إلى سوريا وتركيا.. وكان عرب وادى النطرون يزودون تلك المدن بالخامات اللازمة، وتعد صناعة الجلود من الصناعات الهامة في تلك الفترة، حيث تدبغ الجلود وتصنع قبل استخدامها في صناعة الأحذية والسروج وغيرها... وقد تركزت صناعتها في القاهرة، ولم تكن تكفى حاجة البلاد بدليل استيراد مصر لكميات كبيرة منها من المغرب.

وقد قامت في معظم المدن المصرية صناعة عصر الزيوت واستخراجها، أما الصناعات الفنية والدقيقة فقد اقتصرت على المدن الكبيرة.. فاختصت القاهرة بالخشب والمعادن حيث كانت تستورد خاماتها. وإن كانت قلة الطلب على المصنوعات الفاخرة قد اثرت على صناعتها فتضايل شأنها.

وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك صناعات أخرى مثل صناعة العطور في الفيوم، والسكر الأحمر والعسل الأسود في مدن الصعيد، وصناعة ملح النشادر وملح الطعام^(٢)، أما صناعة تجفيف الأسماك وتعليقها التي اشتهرت بها دمياط

(1)Gibb and Bowen: Islamic Society , P. 297.

(٢) /. السيد رجب حرّاز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ٥١.

بصفة خاصة فقد لاقت بعض الرواج، وذلك بسبب تصدير هذه الأسماك إلى الخارج.

وقد انتظم المشتغلون بالصناعة في المدن في طوائف حرف مختلفة، أطلق عليها اسم الأصناف، وهو النظام الذى كان سائدا في العصر المملوكى.

وكان لكل حرفة- أو صنف- شيخ يشرف على جميع الشئون الداخلية للطائفة، وهو حلقة الاتصال بين طائفته وبين السلطات الحكومية. وإلى جانب الشيخ كانت الطائفة تتألف من الأسطوات وهم الذين يملكون أدوات الإنتاج والحوانيت، ثم الصناع باليومية، وأخيرا الصبيان، ولقد كان لنظام الطوائف مزاياه وعيوبه.. أما مزاياه فهي إيجاد نوع من الترابط والتعاون بين أبناء الحرفة الواحدة، كما أتيج لكل فرد من أفراد الطائفة الشعور بالطمأنينة التى توفرها له طائفته إذ هى تحمى حقوقه وتدافع عنها^(١)، وقد أكسب نظام الطوائف أغلبية الطوائف روحا دينية عالية^(٢)، إذ كانت معظم الطوائف تنتمى إلى جماعة دينية.

أما عن عيوب نظام الطوائف فكان إغلاق الباب فى وجه رعوس الأموال التى كان يمكن استثمارها فى الصناعة^(٣)، كما أنه كان عاملا من عوامل الجمود حيث لم يكن من المتيسر أن يخرج فرد من طائفة إلى طائفة أخرى. وإلى جانب هذا فيرجع تأخر مستوى الصناعة فى مصر العثمانية بوجه عام إلى ما يلى:

- ١- أن مصر كانت فقيرة فى المواد الخام، فباستثناء خيوط النسيج والجلود كان عليها أن تستورد معظم المواد الخام وحتى خيوط النسيج فإنها لم تكن تكفيها فى معظم الأحيان.
- ٢- إفتقار مصر إلى المواد الحرارية اللازمة لبعض الصناعات، إذ كانت تقتصر للفحم ومواد الطاقة.

(١) المرجع السابق، ص ٤٨-٤٩.

(٢) محمد تقيس: الدولة العثمانية والشرق العربى.

(٣) السيد رجب حرز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ٥٠.

٣- تحول سير التجارة ما بين الشرق والغرب عن البحر الأحمر إلى رأس الرجاء الصالح .

وقد أدى هبوط مستوى الصناعة في مصر في القرن الثامن عشر إلى منافسة الصناعات الأوروبية المتطورة للصناعات المصرية المتأخرة بحيث عجزت هذه الأخيرة عن الصمود في مجال المنافسة، مما أدى إلى زيادة تدهورها. أما عن التجارة فقد كانت تنقسم إلى قسمين: تجارة داخلية وتجارة خارجية. وبالنسبة للتجارة الداخلية فقد كانت تتم في أسواق تعقد أسبوعياً في كل مدينة ومركز زراعي حيث يجرى تبادل السلع المحلية مع سلع العاصمة^(١). وكانت تعقد في القاهرة أسواق أسبوعية، تباع فيها سلع الأقاليم التي تغذي الأسواق العامة والحوائيت. أما تجارة الجملة، وعمليات الاستيراد والتصدير فكانت تجرى في الوكالات التي كانت ترخر بها القاهرة، وكما خضعت الصناعة لنظام الطوائف، كذلك كان شأن التجارة حيث اقتصت كل طائفة بنوع معين من التجارة، وبسوق معينة، ووكالة محددة، أما عن التجارة الخارجية فقد أصيبت بخسارة كبيرة نتيجة لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الذي أدى إلى تدهور الاقتصاد المصري، إلا أنه بعد أن أصبحت مصر ولاية عثمانية، نشأت بعض العوامل المساعدة على تنشيط نسبي للتجارة الخارجية، أهمها:

- أن مصر أصبحت جزءاً من كيان سياسي واقتصادي يشمل النصف الشرقي من حوض البحر المتوسط، مما أدى إلى اتساع نطاق السوق الاستهلاكية فجابها. للتجار بسهولة، وكانت مصر بحكم موقعها مركزاً هاماً في عملية إعادة توزيع السلع.

كذلك فقد تمكن العثمانيون من فرض نفوذهم وسيطرتهم على حركة الملاحة في البحر الأحمر ومنعوا عن الأوروبيين، في الوقت الذي اشتد فيه الطلب على بن اليمن، ومن ثم استغلت مصر هذا الوضع لصالحها، فاحتكرت إلى حد كبير تصدير البن إلى أوروبا حتى نهاية القرن الثامن عشر. وقد سلكت التجارة عدة

(1)Gibb and Bowen: Islamic Society, P. 297.

طرق منها الطريق الشرقى إلى الحجاز وكانت التجارة تنقل عبره إما بطريق القاهرة- السويس بواسطة قوافل ترتب أمرها قبائل عربية، ثم تقوم السفن بحمل التجارة من السويس حتى ميناء جدة.. أو عن طريق القصير حيث تسير القوافل بحذاء النيل حتى قنا جنوبا، ثم شرقا إلى القصير، ومن هناك تنقل التجارة بسفن إلى جدة.. وأخيرا كان هناك طريق برى عبر سيناء وهو الطريق الذى تسلكه قوافل الحج وفى ذلك الحين كانت صادرات مصر إلى الشرق تتألف من منتجات أغلبها سلع غذائية مثل القمح والأرز والعدس، ومنتجات أخرى مستوردة من أوروبا وأهمها الأقمشة... أما واردات مصر فكان البن أهمها على الإطلاق ثم الأعشاب الطبية والبحار والبخور والخزف الصينى والأقمشة الحريرية. وطريق آخر عبر أفريقيا- وخاصة دارفور وسنار- تتم التجارة فيه عن طريق القوافل، وكان أهم ما يجلبه تجار أفريقيا إلى مصر العبيد، ومن هنا سُمى تجار أفريقيا بالجلابة، وكانت لهم بالقاهرة وكالة تعرف باسم وكالة الجلابة بحى الخراطين. كذلك كانوا يوردون إلى مصر التبر والعاج وريش النعام والصبغ "العربى" والتمر هندی^(١)، أما صادرات مصر إلى أفريقيا فكانت تتألف من منتجات محلية أهمها النسيج والصابون والملح، ومن منتجات أوروبية أهمها الجوخ والزجاج والمعادن.. وأخيرا من منتجات شرقية مثل البن والنسيج. وكان هناك طريق ثالث عبر البحر المتوسط. حيث كانت التجارة تأخذ طريقها بحرا من ميناء الاسكندرية أو دمياط أو رشيد التى ازدهرت بصفة خاصة فى العصر العثمانى. يضاف إلى ذلك أنه كان هناك طريق برى بواسطة القوافل إلى الشام، ولكنه لم يكن فى أهمية الطريق البحرى، وكان الأرز والكتان وملح النشادر والسكر والعاج والجلود على قائمة صادرات مصر إلى تركيا والعديد من ولايات الدولة العثمانية.

أما واردات مصر فكانت تشمل كذلك الخشب والفاواكه المجففة وكانت حركة التجارة نشطة مع الشام، وأغلبها يتم عن طريق موانئ عكا وصور وصيدا وبيروت، إذ كانت مصر تصدر إليها الأرز وال فول والعدس ونسيج الكتان،

(١)- السيد رجب حراز: المدخل إلى طريق مصر الحديث، ص ٥٥.

وتستورد التبغ من اللاذقية والصابون من فلسطين. وكان معظم تجار الصابون بالقاهرة من نابلس والقدس وغزة أصلا، حيث كانت تضمهم وكالة الصابون... كما أن الشام كان يزود مصر ببعض المواد الخام للنسيج مثل القطن والحريز.

كانت التجارة مع المغرب تتم في معظم الوقت عن الطريق البحري، وجزء منها بالطريق البري خلال موسم الحج. وكانت مصر تصدر إلى المغرب الأقمشة ومعظمها من الإنتاج المحلي، والبعض من الإنتاج الشامي، أما الواردات إلى مصر فكانت بعض الميّنجات الغذائية مثل زيت الزيتون والعلس، وبعض المنتجات المصنعة في المغرب مثل الطرابيش والبرانس والأحزمة والشيلان والأخفاف المغربية. وكانت المنتجات المغربية تباع في سوق خاصة بها في حي ابن طولون تسمى سوق المغاربة. كذلك كانت فرنسا والبنديقية وبعض المدن الإيطالية من أهم البلاد التي تتعامل معها مصر تجاريا في أوروبا الغربية. وكانت الصادرات المصرية إليها تتألف من منتجات نباتية وحيوانية وأملاح، ومنتجات أخرى شرقية وأفريقية.

وأهم تلك الصادرات الأرز والبن والكتان والصوف والجلود وغزل القطن وملح النشادر والصمغ والأعشاب الطبية والأقمشة القطنية والكتانية. أما الواردات إلى مصر فكانت تتألف من بعض المنتجات المصنعة كالأقمشة خاصة الخوخ والورق وبعض المواد الخام مثل القصدير والنحاس وبعض المواد الفاخرة كالمرجان والزجاج.

ومن كل ما تقدم يتبين أن حركة التجارة لم تكن كاسدة أو متدهورة الأمر الذي جعل بعض التجار وضعا متميزا وسط الشعب المصري. وقد بلغ بعضهم حدا وفيرا من الثراء مما ساعد بعضهم على الاختلاط بالحكام ومصاهرتهم.

غير أنه كانت هناك عدة أسباب محلية عرقلت في كثير من الأحيان رواج التجارة، ضمنها سوء المواصلات البرية وعدم توافر الأمن فيها، حيث كان اللصوص وقطاع الطرق يهاجمون القوافل، إلى جانب إهمال إصلاح الموانئ البحرية، فضلا عن ارتفاع الضرائب على الوكالات وكذلك الجمارك.⁽¹⁾

وحول العملة المتداولة خلال الحركة التجارية فقد كان لمصر نظام مالي مزوج، شأنها في ذلك شأن جميع البلاد الخاضعة للإمبراطورية العثمانية، حيث كان التعامل يجرى بمسكوكات عثمانية ومحلية وأخرى أجنبية. وكانت العمليات التجارية الكبرى تجرى بواسطة المسكوكات الغربية.. أما النقد المتداول في الحياة التجارية اليومية العادية فكان عبارة عن المسكوكات المحلية التي خضعت طوال الحكم العثماني لتخفيضات متتالية في قيمتها، الأمر الذي كان له أكبر تأثير على الحياة الاقتصادية في مصر، حيث أدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار، وبصفة خاصة منذ منتصف القرن السابع عشر، وقد أدى هذا بدوره إلى آثار اجتماعية سلبية حيث عانت أغلبية الشعب من غلاء المعيشة وارتفاع الأسعار.

ولقد كان استقرار قيمة بعض العملات الغربية عاملا رئيسيا في تمسك المصريين بالتعامل بها، وكانت هذه العملات تجيء إما من أوروبا مباشرة أو من تركيا حيث كان الميزان التجاري بينها وبين مصر في صالح الأخيرة.

وكانت المسكوكات المحلية تضرب بأمر الباشا في دار الضرب بالقاهرة أو "الضربخانة"، وكانت إما مسكوكات ذهبية تطابق المسكوكات الذهبية في استتبول وتحمل اسم السلطان الحاكم وتاريخ توليته ثم مكان الضرب وتاريخه وكان الجنيه السائد حتى أواخر القرن السابع عشر يسمى "الأشرفي".

وفي عام ١٦٩٧ تلقت مصر الأوامر بضرب جنيه جديد يحل محل الأشرفي ويحمل طرة السلطان مصطفى الثاني، وقد أطلق عليه في مصر اسم "شريف طوالي" أو "أبو طرة"، غير أن استعماله لم يدم طويلا إذ ما لبث أن حل محله الجنيه المسمى "الزنجري" ثم "القندقلى"، و "زر محبوب".

(1)Gibb and Bowen: Islamic Society, P. 299.

أما المسكوكات الفضية المحلية "النصف فضة" فكانت نادرة إلى حد ما.. وما تاريخها إلا سلسلة من تخفيضات متتالية لقيمتها خلال الأزمات الاقتصادية ومحاولات قصيرة الأمد لتحسينها.

وتعتبر المسكوكات النحاسية "الفلوس" أو "الجداد" أكثر المسكوكات انتشارا في المعاملات التجارية البسيطة، وقد اختلفت قيمة هذه الفلوس ووزنها بالنسبة للمسكوكات الفضية، ولكن وزن الفلوس في أغلب الأحيان كان يقدر بخمس إلى نصف وزن المسكوكات الفضية.

أما المسكوكات الأجنبية التي تعاملت بها مصر فكانت في معظمها غربية وهي تنقسم إلى مسكوكات ذهبية وأخرى فضية، وكان الجنيه "البندقي" أكثر هذه المسكوكات الذهبية انتشارا حتى منتصف القرن الثامن عشر، أو "شريفى" وهو الجنيه الذهبى المحلى الموازى له فى الوزن والعيار.

ونظرا لندرة المسكوكات الفضية التى سكها العثمانيون بصفة عامة والمصريون بصفة خاصة، اقتصر التعامل بالمسكوكات الفضية إلى حد كبير على المسكوكات الفضية الغربية وأهمها الريال الهولندى الذى أطلق عليه المصريون أسماء متعددة: "الأسدى" نسبة لشكل الأسد الذى يحمله أو "أبو كلب" أو "الكلب الحجار"... وقد انتشر التعامل بهذا النقد حتى نهاية القرن السابع عشر حين أدى تخفيض نسبة الفضة فيه - ٥٠% من وزنه - إلى الانصراف عن التعامل به.

وقد حل محله الريال الإيبانى الذى أطلق عليه المصريون أسماء مختلفة:

"ريال" - "قرش ريال" - "ريال حجار" - "ريال مشط".

وإلى جانب الريال الإيبانى انتشر التعامل فى مصر خلال القرن الثامن عشر بالتالر الألمانى الذى أطلق عليه المصريون اسم "أبو طاقة" الذى حرف فيما بعد إلى "بطاقا" أو "ريال بطاقا". أما ما كان يحمل منه صورة الإمبراطورة "مارى تيريز" فكان يسمى "ريال فرنسا".

وبالإضافة إلى المسكوكات المحلية والغربية كانت توجد مسكوكات عثمانية ولكنها كانت تحتل مكانة محدودة فى مجال التداول.

وكان الدينار المغربي ويسمى "ذهب إسماعيل" وهو دينار السلطان مولاي إسماعيل من المسكوكات التي كان التجار المصريون يقبلون عليها في معاملاتهم التجارية مع المغرب. وكذلك تعامل التجار المصريون بالقرش الحجازي وإن كان تداوله محدودا ولا يتناسب مع حجم التجارة مع الحجاز.

الأحوال الثقافية:

انقسم المجتمع المصري خلال الحكم العثماني إلى ثلاث قوى إجتماعية وهي قوى فوقية وتشكلت من الأتراك العثمانيين والمماليك، وقوى متوسطة وتكونت من بعض العلماء والمشايخ وكبار التجار وأرباب الصناعات... وقوى تحتية وهي غالبية الشعب المصري وتتألف من صغار التجار والصناع والفلاحين وهي القوى المغلوبة على أمرها والمحرومة من كل شيء.

إن هذا الانقسام الأفقي للقوى الاجتماعية كان يقابله إنقسام رأسي في كل من القوى الثلاث، وبصفة خاصة في القوى الفوقية ، وكذلك في القوى التحتية التي إنقسمت إلى طوائف، ولم يكن متيسرا أن يخرج فرد من طائفة إلى أخرى.

وكان من شأن ذلك كله تقسيم المجتمع إلى مجتمعات صغيرة تتسم بالانعزالية، وقد ساعد على ذلك أن الدولة العثمانية كانت ترى أن وظائف الدولة تنحصر في حدود معينة كتحصيل الضرائب والدفاع عن البلاد والمحافظة على الأمن، ومن ثم لم تحدث الدولة العثمانية أى تغيير جذري في حياة المجتمع المصري رغم استمرار حكمها لفترة تزيد عن الثلاثة قرون.

وما من ريب أن الحياة الفكرية في مصر تعرضت لأزمة في نهاية العصر المملوكي أدت إلى إحداث شلل في حياتها الثقافية وفقدانها لروح الإبداع والتجديد، ثم جاء الغزو العثماني فلم يحدث لدى المثقفين ردود فعل إنتاجية خصبة.^(١)

(١). محمد أنيس: مدرسة التاريخ المصري، ص ١٦.

غير انه من الخطأ أن نتصور أن الحياة العلمية والثقافية كانت راکدة تماما.. حقيقة كان الأزهر هو محور هذه الحياة ومنبعها ومع ذلك فقد امتدت الحياة العلمية إلى الحياة العامة. فكان الباشوات العثمانيون وأمراء الممالیک يعتقدون في قصورهم الندوات العلمية والأدبية. وكان مشايخ الأزهر بدورهم يعتقدون في بيوتهم حلقات التدريس لأصحابهم وتلاميذهم ومريديهم^(١)، وكانت بعض هذه الحلقات تستمع إليها النساء من وراء ستار وتتاسب فيها البخور والعطور... كما كان لبعض هؤلاء المشايخ من خزائن الكتب يختلف إليها الطلاب.

وإلى جانب السيد مرتضى الزبيدي والشيخ الجبرتي، إشتهر في مصر إبان العصر العثماني طائفة من المشايخ منهم الشيخ شمس الدين الشرنبلي شيخ مشايخ الأزهر والشيخ شمس الدين محمد البقري. كما ظهر في هذا العهد بعض المؤرخين كمحمد ابن إياس الذي عاصر أواخر العصر المملوكي، وأوائل العصر العثماني في مصر والذي يعد كتابه "بدائع الزهور في وقائع الدهور" من أهم المصادر التي يرجع إليها الدارسون والباحثون. ومن المؤرخين أيضا ابن زنبيل الرمال كذلك أبو السرور البكري في القرن السابع عشر الذي تعد مخطوطاته المحفوظة في دار الكتب ومنها "الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة"، و"النزهة الزهية في ذكر مصر والقاهرة المعزية" من المصادر المهمة في تلك الفترة. غير أن أهم المؤرخين الذين تمتعوا بشهرة كبيرة هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتي صاحب "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" ومظهر النقد بزال دولة الفرنسيين.

ومن الظواهر الثقافية في مصر العثمانية ظاهرة التصوف والطرق الصوفية، التي كانت مصدرا للثقافة العامة بما يتصل بها من التعليم الديني والعبادة الروحية، وبما ينشده المتصوفة من الأشعار والأنكار. على أن التصوف الذي انتشر في مصر العثمانية كان أقرب إلى الدروشة منه إلى التصوف النظري أو الفلسفي^(٢). وأنها تتصل بالحياة الاقتصادية والسياسية بدرجة كبيرة. وتفسير ذلك أن

(١). السيد رجب حراز: المنخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ٦٤-٦٥.

(٢). السيد رجب حراز: المنخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ٦٦.

الطرق الصوفية كانت الوسيلة للهروب من ظلم الحكام وطغيانهم، حيث يلتصق المصريون العدالة فيما وراء الدنيا، أى أن الصوفية- فى مصر العثمانية- هى هروب الفقراء التوسع من الظلم الواقع عليهم، إذ كان الدرويش يأوى بنسائه وأطفاله إلى إحدى الزوايا، ويعيش هناك مع غيره على الأوقاف المحبوسة على الزوايا.. وقد كون أرباب الطرق الصوفية طوائف قائمة بذاتها، وتمتع شيوخها بنفوذ كبير لدى الحكام والشعب على السواء.

الحياة الفنية:

حفل العصر العثمانى بنشاط فنى وعمرانى كبير. حقيقة أنه لم يبلغ فى ذلك شأن العصر المملوكى الذى سبقه، ولكن الكثير من روائعه تبقى شاهدا على أن الفنان المصرى حينما تتاح له الفرصة والإمكانيات قادر على الإبداع. وهناك من يردون أسباب ما يروونه ضعفا إلى اضطرار أعداد كبيرة من الصناع والحرفيين إلى الذهاب إلى الأستانة والحقيقة أن هؤلاء الصناع والحرفيين الذى سافروا إلى عاصمة الدولة بعد وفاة سليم الأول عادوا إلى مصر فى أيام سليمان القانونى وزاولوا أعمالهم السابقة.

الأتراك العثمانيون :-

ينتمي العثمانيون الأوائل إلى إحدى عشائر قبيلة الغز التركية ، والتي تعرف باسم قابي ، وقد هاجرت هذه القبيلة من المشرق إلى الأناضول في القرن الثالث عشر الميلادي هربا من جنكيزخان ووصلت إلى آسيا الصغرى وبعض شواطئ البحر الأسود وأرمينيا حيث التجأت إلى السلاجقة المسلمين قحمومهم وأقطعهم أراضى لمواشيهم .

وكانوا يعتمدون في حل ما يواجههم من مشكلات على زعيمهم عثمان الذي ولد على حسب الروايات التاريخية في عام ١٢٥٨م ، ولما كانت الحروب الصليبية قد دارت رحاها في ذلك الوقت فقد تطوع عثمان مع بعض رجاله لنصرة بعض سلاطين السلاجقة ، وأظهر شجاعة وحسن دراية فاستدعى ذلك مكافأته وتقديره ، فعين حاكما على إحدى المقاطعات ، وبعد وفاة السلطان السلجوقي أعلن عثمان استقلاله^(١) ، وبسقوط دولة السلاجقة على يد المغول الإيلخانيين تمكنت الإمارة من استقطاب عدد من الإمارات التركية المسلمة في الأناضول وهي الإمارات الناشئة على انقاض دولة السلاجقة واستأنفت توسعها غربا فأتجهت منذ سنة ١٣٤٥م إلى أوروبا الشرقية فاستولت على أجزاء كبيرة منها وتوجت أعمالها العسكرية في عهد محمد الفاتح يفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م .

وما أن انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت الدولة العثمانية تشمل الأناضول واليونان وشبه جزيرة البلقان وجزائر بحر إيجه وجزيرة في جنوب إيطاليا^(٢) .

وفي عهد السلطان سليم الأول ١٥١٢-١٥٢٠م اتجهت الفتوحات نحو الشرق ، بعد تحديات الشاه إسماعيل الصفوي لأهل السنة والجماعة ، فذفغ ذلك سليما إلى العمل على مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام . ولم يكن السلطان سليم يرى كبير فرق بين الشاه إسماعيل وجنده ، وبين أي من حكام أوروبا في عدائهم للإسلام ، خصوصا أن الشاه رسم سياسته التوسعية على أساس التحالف مع البرتغاليين . ولما كان العثمانيون يعدون أنفسهم حماة المذهب السني فقد اتخذت عملياتهم العسكرية ضد الصفويين شكل التدمير والقسوة البالغة^(٣) ، وانتهت باتتصارهم في جالديران ودخول تبريز عاصمة الصفويين ،

١- ميخائيل مشاققة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ، القاهرة ، ١٩٠٨م ص ١٩ .

٢- العراق في التاريخ ص ٥٦٦-٥٦٧ .

٣- أكرم العليبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥٢٠م ، دمشق ، المتحدة للتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص ٣٦٨ ..

وزعزعة النفوذ الإيراني في المنطقة ، وهز كيان الموالين لهم^(١) . وبعد خروج الصفويين من حلبة الصراع بدأ السلطان سليم يوجه جهوده لاجتياح الممالك ، واعداد العدة لتوحيد الجبهة الإسلامية .

: الممالك :

جلب الممالك من مناطق عدة من أبرزها شبه جزيرة القرم وتركستان وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس والبحر الأسود^(٢) ، وكان ذلك بطريق الشراء من أسواق النخاسة^(٣) .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب أول من اشترى الممالك بشكل مكثف واتخذ منهم جندا بأعداد كثيفة ، وبعد وفاته أفلت زمام الأمور من الأيوبيين وتمكن الممالك من السيطرة على زمام الموقف والقضاء على توران شاه الوريث الشرعي للحكم .

وقد حكم الممالك العديد من البلدان الإسلامية وبخاصة مصر والشام والحجاز ، واستطاعوا حماية ديار الإسلام من المغول الذين تمكنوا من القضاء على الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد في عام ٦٥٦ هـ ، كما تمكنوا من الثبات أمام قوى الصليبيين الذين حكموا العديد من بلاد الشام لفترة ثم أخرجوهم منها .

ونتيجة لحركة الكشوف الجغرافية وتحويل طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح بدأت أحوال الممالك في التدهور والضعف بشكل مكن البرتغاليين من هزيمتهم في موقعة "ديو البحرية" في عام ١٥٠٩م والاستيلاء على بعض المناطق الاستراتيجية في البحر الأحمر وتهديد الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز وفي خلال ذلك كانت العلاقات المملوكية مع العثمانيين جيدة ، لدرجة أن قام العثمانيون بمساعدة الممالك لتقوية أسطولهم البحري حتى يتمكن من مواجهة البرتغاليين ، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً فبعد انتصار السلطان سليم العثماني على الصفويين بدأ في التحرش بالممالك حيث

١- العراق في التاريخ ص ٥٦٨ .

٢- للتفاصيل انظر أبو العباس القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج٤ ، القاهرة ، ١٩٢٢ ص ٤٤٧ .

٣- كان بالقاهرة أسواق لهذا الرقيق تعقد في خان الخليلي ، وكان للسلطين عمال يختارون لهم ما يناسبهم من الغلمان كما كان الأمراء والوزراء والقضاء يختارون من شاءوا منهم أناثاً وذكوراً فيذهبون بالنساء منهم إلى المدارس يلتقونهم أصول الدين والعلم ثم يدربونهم على فنون الحرب وقيادة الجند .

دمر إمارة "البيستان"^(١) الواقعة تحت حمايتهم ، وحشد قواته في مواجهتهم وخاصة أنهم قاموا ببيوء الثائرين عليه ومنهم الأمير جم ابن السلطان محمد الثاني الذى كان يرى نفسه أحق من السلطان سليم بالحكم ، ورفضوا تسليم اللاجئين إليهم .
وبعد أن أرسل السلطان سليم الأول فى يونيو ١٥١٦م برسالة مهينة إلى السلطان قنصوة الغورى يطالبه فيها بأن يلقاه عند مرج دابق ، أخذ الغورى فى الاستعداد لملاقاة العثمانيين ، وطلب من مماليكه الاستعداد للمعركة ومن قوله فى هذه الشأن "والذى منكم متزوج يطلق زوجته حتى لا يبقى وراءكم التفاتة إذا سافرتم فى التجريدة"^(٢) كما طلب من الخليفة العباسى فى مصر محمد المتوكل الاستعداد للسفر معه .

ومضى الغورى على رأس جيشه إلى بلاد الشام ، وأتاب عنه طومان باى فى مصر ، ووصل الغورى إلى حلب فى يوليو ١٥١٦م ، وحدث قتال شديد بين الطرفين انهزم فيه العثمانيون فى بداية الأمر لدرجة أن هم السلطان سليم بالهرب وخاصة بعد أن قتل من عساكره ما يزيد عن عشرة آلاف^(٣) ولكن سرعان ما لعبت الخيانة دورها فقد أطلق "خاير بك" نائب حلب - الذى استطاع السلطان العثمانى رشوته وضمه إلى صفوفه - بعض الشائعات بين صفوف المماليك بهدف إحداث الفرقة بينهم ومنها أن السلطان المملوكى أبعد مماليكه الجلبان عن قلب المعركة ، وترك لجنود القرائصة وقودا للحرب ومنها أن السلطان الغورى قتل فى أثناء المعركة فتبليت الأفكار ، وشاع الذعر فى صفوف المماليك لدرجة أن اضطربت أحوالهم وأخذ بعضهم فى الفرار ، ولم ينجح الغورى فى السيطرة على الموقف وأفلت منه الزمام ونتيجة لعدم تحمله لصدمة الهزيمة انقلب من فوق جواده على الأرض فاقد الوعى^(٤) وداسته سنايك خيول العثمانيين المندفعة وراء المماليك المتقهقرين ، فلما رأى ذلك أمراؤه القريبون منه خشوا أن يقع فى أسر العثمانيين فيفصلوا رأسه عن جسده ، ويطوفوا بها فى بلادهم ففروا قتلته بأنفسهم فقطعوا رأسه ورموها فى جب وأخذوا جثته والقوها فى نهر قريب^(٥) .

١- لهذه الإمارة أسماء أخرى منها ذو القادر .

٢- للتفاصيل انظر ابن اياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ٣- القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق الطبعة الأولى ١٣١٢-ص ٥ .

٣- ابن اياس : المصدر السابق ٣-ص ٤٧ .

٤- ابن زنبيل : تاريخ السلطان سليم مع قنصوه الغورى ، جزءان . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨ .

٥- ابن زنبيل : ص ٥٠ .

وانتهت معركة مرج دابق التي لم تستمر سوى يوم واحد وذهب ضحيتها الألوف من الطرفين بتغيير الأوضاع في العالم الإسلامي فاستولى العثمانيون على بلاد الشام وبدأوا في التأهب للسيطرة على مصر .

ويرجع أسباب هذا الانتصار إلى عوامل عدة من أهمها :

- ١- تفوق القوات العثمانية في سلاح المدفعية الذي لا يمتلكه المماليك .
 - ٢- خيانة خاير بك نائب السلطان الغوري في حلب .
 - ٣- الوقعة بين المماليك الجلبان والقرانصة عند احتدام المعارك .
- وقد دخل السلطان سليم حلب دون مقاومة ، فأمن أهلها على أرواحهم وأولادهم وأموالهم^(١) ، كما دخل دمشق وغيرها من المدن السورية .

وعادت فلول الجيش المملوكي إلى مصر وهم في أسوأ حال فكانوا ممزقى الثياب، نحيلى الأجسام . وبعد أن وصل نيا الهزيمة إلى القاهرة اجتمع المماليك لاختيار سلطان جديد يتولى أمور البلاد . واستقرت أمور البلاد في النهاية على اختيار "طومان باى" . ولما تردد طومان باى في الأمر خشية الغدر به قام الأمراء بالقسم على المصحف بالألا يغدروا به أو يثيروا فتنا ضده^(٢) .

وبعد أن علم "طومان باى" بزحف السلطان سليم على مصر ، ووصوله إلى غزة نادى المماليك بالخروج من غير تأخر ، فخرج العسكر مسرعين ، ووقعت معارك عنيفة انكسر فيها المماليك ثم أخذ طومان باى في إعادة تجميع صفوفه عند الريدانية (بالقرب من العباسية) . ولما أقبلت العساكر العثمانية التقى معها المماليك في معركة مهولة انتهت بهزيمتهم وانكسارهم^(٣) .

ودخل العثمانيون القاهرة بالسيف عنوة فى يوم الجمعة الموافق ٢٣ من يناير ١٥١٧م وخطب للسلطان سليم على منابرها . مع ذلك لم يستسلم طومان باى فقد أخذ يعد العدة للمقاومة واشتبك مع العثمانيين فى عدة معارك ولما لم يتمكن من الظفر بهم احتضى عند أحد مشايخ العربان ولكن الشيخ الذى احتضى عنده تنكر له وسلمه للسلطان سليم فأمر بإعدامه .

١- القرمانى : أخبار الدول و آثار الدول ، القاهرة ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٢٦ ص ٩٩ .

٢- ابن اياس : المصدر السابق ج٣ ، ص ٦٩ .

٣- ابن اياس : المصدر السابق ج٣ ، ص ٩٧ .

ويذكر ابن إياس ان طومان باى طلب من الناس فى أثناء ذهابه إلى المشنقة أن يقرأوا عليه "الفاطحة ثلاث مرات ثم بسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ثم قال للمشاعلى اعمل شغلك ... فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف^(١) .

وبإعدام طومان باى انتهت سلطنة المماليك على مصر ، كما انتهت من قبل على الشام بمقتل الغورى ، وخضعت البلاد حوالى أربعة قرون تحت السيادة العثمانية . أما عن الحجاز فقد خضعت سلما للعثمانيين . فقد أرسل الشريف بركات ابنه أبانمى إلى السلطان سليم بالقاهرة ليهنئه بانتصاراته على المماليك وحكم مصر وليعلن الولاء للعثمانيين فثبته السلطان سليم على شرافة مكة ، وجعله المتصرف فى أمرها ، كما أضاف إليه أمور الحسبة بمكة أيضا^(٢) .

نظام الحكم العثماني

ارتكز نظام الحكم العثماني فى العالم العربى على أربعة أمور أساسية هى :

- ١- الإبقاء على أحوال العالم العربى الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والتركيبة السكانية كما هى قبل الفتح العثماني لها ، فلم تحاول الدولة العثمانية مثلا صبغ أهل الولايات العربية التابعة لها بالصيغة العثمانية أو بربطهم برباط الحضارة العثمانية^(٣) ، كما لم تحاول فرض اللغة التركية عليهم بدلا من العربية .
- ٢- عزل العالم العربى عزلا يكاد يكون تاما عن التيارات الاقتصادية والسياسية العالمية بحيث لا يتأثر بما يدور فى العالم الخارجى .
- ٣- كان المجتمع فى نظر العثمانيين عبارة عن قسمين : الأتراك وهم الحكام الذين يتمتعون بكافة الامتيازات ، والرعية وهم المحكومون الذين يتحتم عليهم خدمة الحكام والاستجابة لمطالبهم .

١- ابن إياس : المصدر السابق ص ١١٥ .

٢- ابن إياس : المصدر السابق ج ٣ ، ص ١٢٤-١٢٦ .

٣- محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٥٠ ص ٦ .

وقد أدى انزعال الطبقة الحاكمة التركية عن الأهالى وتعالى أفرادها عليهم إلى ضآلة تأثير الحكم العثمانى^(١) .

٤- ان فكرة الحكم عند العثمانيين كانت تركز على أن للدولة وظائف محددة ، ومسئوليتها لا تخرج عن المحافظة على سيادتها ومصالحها فى هذه الولايات أما عن الخدمات العامة مثل التعليم والصحة فانها لا تدخل ضمن مسئوليتها أو اختصاصاتها ، ومن

هنا تحددت مهام الدولة العثمانية فيما يلى :

١- الدفاع عن الولايات التابعة للدولة وحفظ الأمن فيها .

٢- جمع الأموال وإنشاء إدارة مالية خاصة بذلك .

٣- إقامة نظام قضائى للفصل فى المنازعات التى تحدث بين الأهالى .

وعلى هذا النحو ارتكزت فلسفة الحكم العثمانى على عدة أنظمة كان أهمها :

الوالى - الديوان - الحامية العثمانية - العصبية المحلية^(٢) ، وفيما يلى نعرض لذلك :

أولا : الوالى :

كان السلطان العثمانى يعين الوالى بصفته نائباً له فى الولاية التى يحكمها وكان يلقب بعدة ألقاب منها لقب الباشا وقد وكلت إليه السلطان المدنية والعسكرية ومسئولية جمع الضرائب ، فكان على رأس الجهاز الادارى وكان يقود الجيوش بنفسه^(٣) ، ويبلغ الرعايا بأوامر السلطان ويقوم بإرسال المقررات المفروضة على ولايته إلى الخزائنة السلطانية ، ومع كل ذلك فانه نظرا لشكوك السلاطين فى ولايتهم وعدم الثقة فيهم وخشيتهم من الانفصال بولاياتهم عن الدولة العثمانية ، فقد أحاط السلاطين الولاية بجواسيسهم وعمالهم ، وأخذوا ينتزعون منهم العديد من اختصاصاتهم ، فتركزت النواحي المالية فى يد الدفتردار الذى كان يعين رأساً من القسطنطينية ، وتركزت النواحي الادارية فى يد الكتخدا أو الكخيا الذى كان تعيينه يتم بالقسطنطينية ، وكانت السلطة القضائية ينفردها قاضى القضاة الحنفى الذى كانت ترسله القسطنطينية ، وإلى جانب

١- محمد أنيس : حضارة مصر الحديثة ص ١٤٤ .

٢- محمد عبد المنعم الرائد : الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى . الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٦٨ ص ٢٦٨ .

٣- أميرة المداح : العثمانيون والامام القاسم محمد فى اليمن ، جدة . مكتبة تهامة ١٩٨٢ ص ١٤٨ .

ذلك كانت الحاميات العثمانية (الواجقات) تخضع لسلطة الأغوات الذين لم يكن للوالى سلطات عليهم^(١) ، وكثيرا ما حدثت النزاعات بينهما. يضاف إلى ذلك أن مدة حكم السوالة كانت تقتصر على عام واحد يتجدد في بعض الحالات ولا يستكمل في حالات أخرى . ونتيجة لذلك حرص الولاة على جمع كل ما يمكن جمعه من الأموال خلال فترة حكمهم ، وبشئى الطرق ؛ مشروعة وغير مشروعة ، ومحاولة ملء خزائنهم خلال تلك الفترة القصيرة التى يقضونها فى ولاياتهم وخاصة أنهم كانوا يشترتون مناصبهم قبل توليتهم إياها . هذا بالإضافة إلى إهمالهم للمشروعات العمرانية والإصلاحية مثل: حفر السترع أو إقامة السدود أو غيرها^(٢) .

ثانيا : الديوان :

الديوان كلمة فارسية بمعنى الدفتر أو السجل ، وقد أطلق على المكان أو الدائرة التى تحفظ فيها السجلات من باب المجاز^(٣) ، ثم شمل بعد ذلك المكان الذى يحفظ فيه كل ما يتعلق بحقوق السلطنة العثمانية من الأموال والأعمال ومن يقوم بها من العمال والجيش وكان الديوان ينقسم إلى قسمين :

الديوان الكبير وهو الذى يفصل فى الموضوعات المهمة ، ولا يجتمع إلا بأمر الباشا ، والديوان الصغير وكان يتألف من الكتخدا والدفتردار وهو الذى ينظر فى شئون البلاد العامة ، وينفذ الباشا قراراته^(٤) .

ويتكون الديوان الكبير من كبار ضباط الحامية وعلى رأسهم أغا الاكتشارية والدفتردار والعلماء وكبار المسؤولين ، وكانت العضوية فى الديوان غنبيير ثابتة ، وكان الباشا فى معظم الأحيان هو الذى يختار أعضاؤه . وكان للديوان تأثير كبير فى ادارة الولايات^(٥) فكان بمثابة مجلس وزراء موسع

١- محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٤٤ .

٢- للتفاصيل انظر محمد كرد على : خطط الشام ج٢ ، بيروت ، النهضة العربية ١٩٧٢ ص ٢٢٥ .

٣- صبحى الصالح : النظم الإسلامية ج٢ ، بيروت ، دار العلم ، الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ ص ٣١٢ .

٤- محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهر محمد على ، القاهرة ، مطبعة المعارف ١٩٦٣ ص ١٠-١١ .

٥- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين ومخير العليكي . بيروت ، دار العلم للملايين .

١٩٧٩ ص ٤٧٧ .

مهمته الرئيسية مراقبة قرارات الوالى والنظر فى الشئون الاقتصادية والادارية ، وتنظيم شئون القوات العسكرية .
ونتيجة لخشية الدولة العثمانية من تمرد ولايتها عليها والاستقلال بولاياتهم جعلت من اعضاء الديوان عيونا لها على الولاة يبلغونها بتصرفاتهم لمنع الولاة من إساءة استعمال سلطتهم .

ثالثا : الحامية العثمانية : -

هى قوة عسكرية عثمانية كانت ترابط فى الولايات وقد أسست هذه الحاميات فى أعقاب الفتوحات العثمانية للوطن العربى ، فبعد أن فتح السلطان سليم الأول مصر ترك بها حامية تتألف من حوالى اثنى عشر ألف جندى يتكون منها ستة أوجاقات على رأس كل منها أغا ، وكانت هذه الحامية تتكون من أخلاط مختلفة من العسكر^(١) .
وكانت مهمة الحاميات : حفظ النظام والدفاع عن الولايات ضد أى خطر خارجى ، وقمع العربان . كما كان لها اختصاصات سياسية وادارية ؛ فكان رؤساؤها يشاركون الوالى فى الحكم كما كانوا يحضرون اجتماعات الديوان ، وكانت لهم الكلمة المسموعة . وإلى جانب ذلك كانوا يقومون بتوصيل الخراج إلى الأستانة وكثيرا ما حدثت الخلافات بينهم وبين الوالى ، وكان التفوق فى الفترة الأولى من الحكم العثمانى للوالى ، ثم استطاع رجال الحامية بعد ذلك أن يسيطروا على زمام الأمور .
وعندما دب الضعف فى الدولة العثمانية ضعفت الحاميات فى الولايات وقسد أمرها ، ولم تعد صالحة لاستتباب الأمن ، بل تحول أفرادها إلى السلب والنهب والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها أن الحامية فى بلاد الشام كانت من أهم أدوات التخريب ، فقد خرج جنودها عن اختصاصاتهم وكثر اعتداؤهم على الأهالى وتناولوا على أموالهم وأعراضهم وكثرت شرورهم^(٢) .
وفى عدن ثار الأهالى ضد تسلط الحامية العثمانية وغدراها بأمرهم عامر الطاهرى ، فاضطرت الأستانة إلى أن ترسل أسطولا بحريا لم يتمكن من السيطرة على الموقف إلا بصعوبة^(٣) .

١- للتفاصيل انظر الراقد : المرجع السابق ص ٢٧٦-٢٧٧ .

٢- محمد كرد على : المرجع السابق ص ٢٢٥ .

٣- فاروق أباطة: الحكم العثمانى فى اليمن ، بيروت ، دار العودة ١٩٧٩ ص ٢٠ .

وفي تونس أعلن الجنود عصياتهم ، وهددوا النظام باعتدائهم على الأرواح والممتلكات .
وفي مصر ركنت الحامية العثمانية إلى حياة الاستقرار واندمجت في الشعب المصري
، وتركت حياتها العسكرية لدرجة أن الحملة الفرنسية حينما هاجمت مصر في أواخر القرن
الثامن عشر لم تجد من يتصدى لها سوى المماليك وجموع الشعب المصري^(١) .

رابعا : العصابات المحلية :

كان هدف العثمانيين من إشراك العصابات المحلية في الحكم هو الاستفادة منهم في
إدارة الولايات التي يحكمونها وحتى يظلوا على ولائهم للدولة العثمانية ولا يقوموا بالتمرد
عليها. ونتيجة لذلك شارك المماليك في تولي مقاليد بعض الأمور في مصر ، كما شاركت
بعض العشائر العربية في الشرقية والبحيرة في حكم المناطق التي تقطنها ، واعترف
السلطان العثماني بالعصابات الكردية وأبقى حكم كردستان للبيوتات الكردية الحاكمة في
شمال العراق ، كما ترك لمشايخ العراق سلطة إدارة عشائرهم ، ومن أهم هذه المشيخات
مشيخات الخزاعل والعبيد وشمرو والمنفق^(٢) .

والسؤال المطروح هو هل ظلت هذه العصابات على ولائها للدولة العثمانية أو تحينت
الفرص للتخلص من الحكم العثماني واستقلالها عنه ؟

الواقع أن هذه العصابات كانت غالبا ما تتطلع إلى استرجاع نفوذها القديم ، ومن هنا
أخذت في استغلال فرص انشغال الدولة العثمانية بمشكلاتها الخارجية والداخلية ؛ ففي مصر
استطاع على بك الكبير المملوكي القيام بثورة ضد الدولة العثمانية في عام ١٧٧١م
والانفصال عنها ، ولم يستطع العثمانيون السيطرة على زمام الموقف إلا بعد الواقعة التي
دبروها بين على بك وقائده محمد أبو الذهب .

وفي اليمن استطاعت العصابات المحلية القيام بثورات متعددة ضد الحكم العثماني
، تمكنت خلالها من انهك جيوش الدولة العثمانية حتى اضطرتها إلى الجلاء عن اليمن
لفترة^(٣) .

١- الراقد : المرجع السابق ص ٢٧٨-٢٨٠ .

٢- عبد العزيز نوار : دلود باشا والسلي بغداد ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦١ ، ص ١١ .

٣- للتفاصيل انظر : فاروق أباطة : المرجع السابق ص ٤١٥ .

وفى وسط الجزيرة العربية قامت الدعوة السلفية التى دعت إلى العودة بالإسلام إلى مبادئه الأولى وألقت بتهمة نشر البدع والخرافات فى العالم الإسلامى على العثمانيين . وفى العراق قامت العصبية المحلية بالعديد من الثورات ضد الحكم العثمانى مثل ثورة آل مهنا فى جنوب العراق وآل شعيب فى البصرة ، والعشائر الكردية فى كردستان^(١) . وفى الشام قامت أسرة آل العظم ، وظاهر العمر بمحاولات للاستقلال الذاتى عن الحكومة المركزية فى استنبول .

ومع كل ذلك فإن خروج هذه العصبية المحلية على السلطنة لم تقلق الدولة العثمانية كثيرا وخاصة أنها كانت تستطيع الانتظار حتى تحين الفرصة المناسبة فتستعيد نفوذها وعلى سبيل المثال نذكر على بك الكبير وظاهر العمر اللذين استغلا فرصة انشغال العثمانيين فى حروبهم مع روسيا ونجحا فى الانفصال عن الدولة ورفع راية العصيان ضدها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ثم ما لبثت الدولة أن استرجعت نفوذها على المناطق التى كانوا يحكمونها بعد انتهائها من الحرب .

أحوال العالم العربى فى ظل الحكم العثمانى

بعد أن سيطرت الدولة العثمانية على العالم العربى فى معظمه ، وصارت الدولة الإسلامية الوحيدة فى المنطقة تقريبا ، تحول العالم العربى إلى منعطف جديد فى النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفيما يلي نعرض لذلك .

١- نوار : المرجع السابق ص ١٠٠

أولا : الأحوال السياسية :

١ - انتقال مركز الخلافة من القاهرة إلى الأستانة :

بعد هزيمة المماليك أمام العثمانيين انتقل مركز الخلافة من القاهرة إلى الأستانة^(١)، واتخذ السلطان سليم الأول لقب الخليفة ليضمن ولاء العرب والمسلمين له على اعتبار أن الخليفة هو في الواقع خليفة رسول الله وأنه يجب على المسلمين طاعته .

٢ - العثمانيون والأماكن المقدسة :

أضفت الدولة العثمانية حمايتها على الأماكن المقدسة لما لها من أهمية دينية ، وحمل السلطان العثماني ألقاب حامى حرمين الشريفيين ، وخادم الحرمين الشريفين ، وهو لقب يكسب من يحمله احترام المسلمين وتقديرهم^(٢) ، وكان السلطان سليم الأول قد اتخذ لنفسه هذا اللقب بعد أن أرسل شريف مكة ابنه إلى القاهرة ليلبغ السلطان العثماني ولاءه واعترافه بالسيادة العثمانية على الحجاز ، وتمسك السلاطين العثمانيون منذ ذلك الوقت بهذا اللقب الديني^(٣) . ولحماية الأماكن الإسلامية المقدسة من أخطار البرتغاليين الذين حاولوا أكثر من مرة النيل منها أغلق العثمانيون البحر الأحمر ، وحولوه إلى بحيرة إسلامية^(٤) .

٣ - عدم إشراك العناصر العربية في حكم بلادها :

ركزت الدولة العثمانية سياستها على أن يبقى العالم العربي في حوزتها أطول مدة ممكنة ، ولذلك لم يسمحوا للعناصر العربية في حكم بلادها ، بل قاموا بنشر عوامل الصواعق بينها حتى تتشغل عن التفكير في السلطة يضاف إلى ذلك أن للحكم العثماني كان مركزيا ، فكان السلطان هو السلطة العليا المسيطرة على كافة الأجهزة السياسية والإدارية والعسكرية ، وكان السلاطين يرون أن الولايات العربية وما عليها هي من أملاكهم الخاصة ، ولهم حق التصرف فيها على أية صورة ، ولم يكن يهم الدولة سوى جمع الأموال والحاصلات التي صارت نهبا لها ولائبعاها^(٥) .

١- الراقد : المرجع السابق ص ٢١١-٢١٤ .

٢- الراقد : المرجع السابق ص ٢٢٨-٢٢٩ .

٣- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفتقرى عليها جـ ١ ص ٦٦ .

٤- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٥ ص ١٤٤ .

٥- الراقد : المرجع السابق ص ٢٦١-٢٦٥ .

٤ - عدم إشراك العرب في الدفاع عن بلادهم :

بعد الفتح العثماني للعالم العربي صار الدفاع عن الولايات العربية ضد أية اعتداءات خارجية من اختصاص القوات العثمانية فأفقد ذلك المواطنين العرب الإحساس بقدرتهم على حماية بلادهم^(١).

ثانيا : الأحوال الاقتصادية :

أبقى العثمانيون النظم الاقتصادية القائمة على النظام الإقطاعي قبل حكمهم الولايات العربية كما هي .

وقد عنى السلطان سليم الأول بمسح الأراضي في مصر والشام ، وخصص مقدارا منها للأجناد ومقدارا لنفقات الوالي ومقدارا للسناجق وما عدا ذلك سمي بالأراضي الديوانية أى التابعة للديوان الأعظم بالإستانة . وقد عد السلطان العثماني نفسه مالكا لكل الأراضي الزراعية ، ورأى أن أصحاب الأراضي لا يملكونها بل لهم حق الانتفاع بها فقط ، ونتيجة لذلك أصبحت الأراضي تؤول عند موت صاحبها إلى الدولة ، إلا أن ورثته يستطيعون ردها إلى حوزتهم إذا دفعوا مبلغا من المال للدولة . غير أن ذلك الوضع أخذ يتبدل بمرور الزمن وبخاصة بعد ازدياد نفوذ بكوات المماليك ، وتمكنهم من تقسيم معظم الأراضي فى مصر بينهم فألت إليهم ملكية ثلث ما يزرع من الأرض ؛ ووزع الباقي بين الفلاحين والمستمزين والأوقاف^(٢) .

وقد قام العثمانيون باتباع طريقة المماليك فى تحصيل الأموال على الأراضي ، باتباع نظام الالتزام بالمزايدة ، وذلك بأن يتعهد الملتزم بدفع مقدار محدد من المال كل عام عن مساحة محددة من الأرض على أن يحصل من الفلاحين العاملين فى هذه الأرض كل ما يستطيع من أموال ، وإذا هرب الفلاح وقت تحصيل الضرائب تصدر ضده عقوبات صارمة . وقد استخدم الولاة سلطاتهم لجمع كل ما يمكن جمعه من الأموال دون الاهتمام بأى اصلاح اقتصادى ، فأدى ذلك إلى تدهور الزراعة والتجارة والصناعة وزاد الطين بلة تحول طرق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح .

١- أنيس : المرجع السابق ص ١٤٥ .

٢- عمر عبد العزيز : دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، الاسكندرية ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ص ١٥٤ .

ثالثا : الأحوال الاجتماعية :

نظر العثمانيون إلى المجتمع على أنه ينقسم إلى قسمين : الحكام وهم الأتراك ، والمحكومين وهم الرعية ، وواجب القسم الثاني أن يعمل في خدمة القسم الأول لإمداده بما يحتاج إليه ، وبعبارة أخرى كان الأتراك يكونون داخل المجتمعات العربية طبقة أرستقراطية عزلت نفسها عن بقية أجزاء المجتمع بحكم فهمها لوظيفتها وإحساسها بذاتيتها ، فكان الحكم العثماني عديم التأثير في حياة الأهالي^(١) ، وخاصة أن العثمانيين لم يشاركوا العرب في حياتهم الاجتماعية العامة ، ولم يهتموا باللغة العربية وبناعش أدبها وعلومها ، كما لم يهتموا بعثمة البلاد فاحتفظ العالم العربي ببنانه الاجتماعي الذي كان سائدا فيه قبل الحكم العثماني ، فاحتفظت الطوائف الدينية الإسلامية باحترامها ، بصفتهم حماة الشريعة ، وقد نجحت هذه الطبقة في رد المظالم ، وكانت بمثابة حلقة الوصل بين الطبقة الحاكمة والمحكومة ، كما احتفظت الطبقات المنتجة من التجار والفلاحين وأصحاب الحرف بسماواتها السابقة ، فكان لكل طائفة شيخ تخضع لسلطته وينوب عنها لدى السلطات الحكومية ويتولى شئونها ويدافع عنها ويقوم بحل المنازعات بين أفرادها ، ويعاقب كل من يخالف منهم عرف وتقاليد الطائفة عقوبات صارمة ، وكان منصب الشيخ وراثيا وكان لمشايخ الطوائف وكلاء يعرفون باسم النقباء^(٢) . أما في الريف فكان شيخ القرية يقوم مقام شيخ الطائفة وكان الابن يرث أباه في مهنته سواء كان الأب فلاحا أو تاجرا أو صائغا ، أما البنات فتنزوج زميل والدها في الحرفة وقد أدى ذلك إلى تقوية الرابطة الاجتماعية وتوثيقها^(٣) .

أما أهل الذمة فقد ظلوا على هامش الحياة الفكرية والسياسية في داخل المجتمع العربي وإن كانت لهم مشاركات في الحياة الاقتصادية بطريقة فعالة .
وعند تقييمنا للحكم العثماني في الوطن العربي يتضح ما يلي :

١ - أن الحكم العثماني كان ضعيفا في تأثيره على العالم العربي على الرغم من طول مدته التي تجاوزت أربعة قرون ، فلم ينجح العثمانيون في عثمة مصر ، بل ما حدث هو أن تمصر العثمانيون وأصبحوا جزءا من الحياة المصرية^(٤) .

١- محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٤٩ .

٢- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ١٥٦ .

٣- أنيس : المرجع السابق ص ١٤٩-١٥٠ .

٤- نفسه ص ١٤٤ .

- ٢ - أن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ظلت جامدة وتدهورت الزراعة نتيجة لعدم الاهتمام بمرافقها ، وتدهورت الصناعة وانحصرت في بعض صناعات بدائية ، كما تدهورت التجارة بسبب اضطراب الأمن ، وسوء طرق النقل ، وضعف القوة الشرائية^(١).
- ٣ - أن الحكم العثماني كان يستند في المقام الأول على رجال الدين الذين وقفوا بجانب الدولة العثمانية للاحتفاظ ببنفوذها في الولايات العربية حيث كانوا يصرون على ضرورة الولاء العام للسُلطان باعتباره حامى حى الإسلام .
- ٤ - ظهور المحلية : أى إن الأفراد كانوا يقومون بتنظيم أمور حياتهم بعيدا عن تدخل الدولة أو أشرفها ففي المدن كان الناس يقسمون إلى طوائف حسب مهنتهم ووظائفهم الاجتماعية ، فالطائفة كانت تضم أصحاب المهنة الواحدة وعلى رأسها شيخ يتولى تنظيم شؤونها والفصل في الخصومات بينها وبين الحكومة ، وفى الريف كانت كل قرية تمثل مجتمعا قائما بذاته يكاد يكون معزولا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للقرى الأخرى وبعبارة أخرى ان نظام الحكم العثماني تميز بضعف التدخل الحكومي ، وترك الأهالي وشأنهم في كل ما يتعلق بأمرهم^(٢) ، وقد أدى ذلك فى نهاية الأمر إلى عدم ولاء الفرد للدولة^(٣).
- ٥ - نجحت الدولة العثمانية فى وقف الأطماع الأوربية فى الوطن العربى لفترة من الوقت ، فقد أوقفت الخطر البرتغالى على البلدان العربية ، ولاحتقت فرسان القديس يوحنا وتمكنت من طردهم من ليبيا ، كما كسرت شوكة الأسبان فى غرب حوض البحر المتوسط .
- ٦ - اعتاد العثمانيون الأخذ ولم يعتادوا العطاء . فلم يهتموا بتحسين أحوال الولايات ، لذلك كان يندر أن يصل من الأستانة رجل صالح فى أخلاقه معروف باستقامته وسعة معرفته يحسن إدارة الأمور ، ويوقف الظالم عن ظلمه^(٤).

١- د. حسين خلاف: التجديد في الاقتصاد المصرى الحديث ، القاهرة . الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ ص ٧ .

٢- محمد شفيق غربال : محمد على الكبير ص ٢٣ .

٣- محمد أنيس : المرجع السابق ص ٥ .

٤- محمد كرد علم : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٢٦٧ .

الموضوع السادس

الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية

- أ - فى مصر : حركة على بك الكبير
ب - فى بلاد الشام : ١- حركة ظاهر العمر
٢- حركة أحمد باشا الجزائر

إن نظرة متفحصة لأحوال الدولة العثمانية فى منتصف القرن الثامن عشر وبخاصة فى الفترة التى قامت فيها حركة على بك الكبير تبين لنا مدى الضعف الذى لحق بالدولة العثمانية من جراء الضربات التى انهالت عليها من الدول الأوروبية وبخاصة روسيا ، فأوهم ذلك قبضتها على ممتلكاتها وأوجد العديد من الحركات الانفصالية المشابهة لحركة على بك الكبير والتى من أهمها حركة ظاهر العمر فى فلسطين ، وحركة الأكراد فى شمال العراق والشام ، والثورات فى البوسنة والهرسك والجبل الأسود والافلاق والبغدان^(١) ، والنزاع بين الأشراف على إمارة مكة . ونتيجة لذلك أخذ بكوات المماليك فى مصر بالاستئثار بالنفوذ والسلطة حتى صار نفوذهم يفوق سلطة الباشا العثماني ، وأصبح لزعيمهم الذى كان يعرف بشيخ البلد الكلمة المسموعة فى البلاد ، وفى النهاية استغل أحدهم وهو على بك الكبير الفرصة وتمكن من الاتفراد بالسلطة فى مصر فى عام ١٧٦٦ .

١ - حركة على بك الكبير :

وقبل أن نتناول حركة على بك الكبير بالدراسة لابد لنا من وقفة نعرض فيها لنشأته وكيفية وصوله إلى حكم مصر .
الاسم الحقيقى لهذا المملوك هو يوسف بن داود وقد ولد فى عام ١٧٢٨ فى بلده

١- محمد رفعت رمضان: على بك الكبير، القاهرة، دار الفكر العربى ١٩٥٠ ص ٥ .

أبازة من أعمال القوقاز العثماني ، وكان والده واحدا من قساوسة الكنيسة اليونانية ، ويرغب في أن يكون ابنه مثله قسيسا ، ولكن القدر لم يمكنه من ذلك وخاصة بعد أن اختطفت عصابة من قطاع الطرق هذا الابن في أثناء رحلة صيد كان يقوم بها فى إحدى الغابات وباعوه لأحد تجار الرقيق فسافر به حتى وصل إلى الاسكندرية وباعه هناك بثمن بخس لمدير جمرک الاسكندرية ، وقد قام مدير الجمرک باهدائه إلى ابراهيم بك أحد زعماء المماليك فى مصر^(١) وقد اعتنق يوسف الإسلام ، وتسمى باسم على ، وقد أظهر هذا المملوك من ضروب الشجاعة فى ركوب الخيل والتدريبات ما ساعده على الترقى فاكتمسب لقب "جن على" ولما بلغ الثامنة عشرة أعتقه أستاذه وولاه سنجقا ، ثم زادت شهرته بعد نجاحه فى الضرب على أيدي البدو الذين كانوا يغيرون على القاهرة ليلا ، فقربه سيده وجعله كاشفا^(٢) وواصل على بك الترقى حتى وصل إلى منصب شيخ البلد ، وخلال ذلك أخذ على بك فى التودد إلى العثمانيين حتى اكتسب ثقتهم وفى الوقت نفسه نشط فى وضع أتباعه فى المناصب الهامة^(٣) ، كما نجح فى تقليص نفوذ كل من الحامية والديوان عن طريق توريثهم فى المشاركة فى الحروب الداخلية ، وتأخير رواتبهم بحجة قلة المال .

كما نجح على بك الكبير فى تركيز السلطتين الحربية والادارية فى يده وبخاصة بعد نجاحه فى كسر شوكة العربان فى الوجهين البحرى والقبلى فصار صاحب النفوذ المطلق على جميع أنحاء مصر واستقامت له الأمور حتى خافه الناس وهايه الأمراء وأخذ يدير دفة الأمور كما يشاء^(٤) . وانتهز على بك فرصة انشغال الدولة العثمانية بحروبها فى روسيا^(٥) ، فاستصدر من الديوان أمرا بعزل الوالى ثم تولى الحكم مكانه وأبطل ورود البلاة العثمانيين إلى مصر^(٦) ، وامتنع عن دفع الأموال إلى الخزينة السلطانية ، وفى عام ١٧٦٨ أحدث تغييرا فى شكل العملة فجعل على أحد وجهيها اسم السلطان ، وعلى الوجه الآخر اسمه .

وعلى الرغم من كل ذلك فمن الصعب القول ان على بك الكبير كان يرغب فى الانفصال عن الدولة العثمانية نهائيا ، بل كان كل هدفه هو الاستيلاء على السلطة فى ظل

١- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص١٨-١٩ .

٢- محمد فواد شكرى : الحملة الفرنسية و ظهور محمد على ، القاهرة ، دار المعارف ص١٦ .

٣- الجبرتي : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج١ ، القاهرة ، المطبعة العامرة الشرقية ص٣٨٤ .

٤- ميخائيل شارو بيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ص١٥١ .

٥- محمد فواد شكرى : المرجع السابق ص٢٠ .

٥- الجبرتي : المصدر السابق ج١ ص٣٨٤ .

السيادة العثمانية وخاصة أن الدولة العثمانية كانت تمثل درعا تحمي الولايات الإسلامية من الأطماع الأوربية ويؤكد ذلك ما أورده الجبرتي بقوله "اتفق أن على بك صلى الجمعة فى أوائل شهر رمضان بجامع الداودية فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك ، فلما انقضت الصلاة وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب ، وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح فقال له : من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك أنسى سلطان ؟ فقال : نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر الغيظ وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى ، فقام بعد ذلك متألما من الضرب ، وركب حمارا وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ ، ثم أن على بك أرسل إليه فى ثاتى يوم دراهم وكسوة واستسمة^(١) .

وقد استطاع على بك الكبير خلال حكمه لمصر أن يخرج البلاد من الدائرة الضيقة التى فرضتها عليه المنازعات وحكم الحكام فبدأ يهتم بإقرار الأمن فى البلاد وتنظيم الإدارة، كما أخذ يتطلع إلى ما وراء حدود مصر فتحالف مع ظاهر العمر حاكم عكا ، كما عقد اتصالات سياسية مع روسيا واتصل بقائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط وطلب منه امداده بالذخائر الحربية والأسلحة . فاستجاب القائد الروسى لطلبه بغية إتهاك الدولة العثمانية فى حروب داخلية ، واضعاف قدرتها العسكرية ضد روسيا^(٢) ، وعلى الرغم من ازدياد نفوذ على بك ، وافتتاته على حقوق العثمانيين فان انشغال السلطان العثمانى بأمرور الدولة الخارجية قد أضعف جهوده الرامية إلى التخلص من على بك^(٣) ، ونتيجة لذلك بدأ على بك الكبير يتطلع إلى ما وراء حدود مصر .

ونتيجة لاختلال أحوال الحجاز فى تلك الفترة تحول انتباه على بك نحو بلاد العرب حتى تتمكن مصر من السيطرة على تجارة البحر الأحمر وشواطئ الهند^(٤) ، وليجعل من ميناء جدة مقرا لهذه التجارة ، هذا بالإضافة إلى إحراره للمجد والشهرة بالاستيلاء على الحجاز أرض الحرمين الشريفين^(٥) .

وقد استطاع على بك الكبير الاستيلاء على بلاد الحجاز بعد أن أرسل قواته بقيادة

١- الجبرتي : المصدر السابق جـ ٢ ، تحت عنوان "حوادث عام ثلاث وثمانين ومائة وألف" .

٢- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٥٩ .

٣- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص ٦٤ .

٤- Irwin, Eyles : Series of Adventures in the course of Avoyage up the Red Sea Dublin 1780 vol 1 p. 159 .

٥- شكرى : المرجع السابق ص ٢١-٢٢ .

محمد بك أبو الذهب^(١) إلى مكة ، وتمكن من الاستيلاء عليها فى عام ١٧٦٩ . وفى أعقاب ذلك منح شريف مكة على بك الكبير لقب سلطان مصر وخاقان البحرين^(٢) فزاد ذلك من شهرته ، وقوة شوكته . وقد شجعت هذه الانتصارات على بك الكبير على المضى فى مشروعاته التوسعية ، فرأى ضرورة إخضاع بلاد الشام لسلطته ، وقد شجعه على ذلك ما يلى :

- ١ - اضطراب الأحوال فى سورية وثورة حليفه ظاهر العمر .
- ٢ - انشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع روسيا ، وعدم تمكنها من إرسال النجدة العاجلة إلى بلاد الشام .
- ٣ - علاقات على بك بالقيصرة كاترين الثانية قيصرة روسيا واستعدادها لمعاونته ضد السلطان العثماني ، وظهور الأسطول الروسى فى البحر المتوسط .
- ٤ - تدمير أهل الشام من العثمانيين نتيجة لفساد الحكم والتفريق بين الأجناس المختلفة .

ونتيجة لذلك أمر على بك الكبير قائده محمد بك أبو الذهب بالزحف على بلاد الشام . وقد أحرز الجيش المملوكى عدة انتصارات متوالية ، فدخل أبو الذهب غزة فى مارس ١٧٧١ ثم استولى على الرملة وحاصر نابلس ثم تقدم صوب بيت المقدس حتى سلمت له ووصل إلى يافا وعكا حيث قوبل بكل حفاوة ، وبدأت بلاد الشام كلها تحت رحمته ، وخلال ذلك لقي أبو الذهب كل ما عاونه وتعصيد من الشيخ ظاهر العمر الذى ساعده بالنصح تارة وبالامدادات تارة أخرى حتى اضطر العثمانيون إلى التقهقر ، واستطاع أبو الذهب الوصول إلى دمشق^(٣) وتخلها فى السادس من يونيو ١٧٧١م ، وأنت إليه الوفود تهنئه وتزف إليه التهاني ، ولما وصلت أخبار هذه الانتصارات إلى القاهرة أقيمت الاحتفالات والزينات ، غير أن هذه الفرحة لم تتم فلم يلبث أبو الذهب أن غير موقفه من سيده ، فأعلن العصيان عليه وأصدر أوامره إلى قواته بهدم خيامهم والانسحاب من دمشق ، كما نادى أهالى الشام بالأمان^(٤) وكرعاندا إلى مصر ، وسحب فى طريق

١- يرجع اطلاق اسم أبو الذهب على هذا المملوك إلى أنه لما لبس الخلعة بالقلعة ، صار يفرق البقائش ذهبيا ، وفى حال ركوبه ومروره جعل ينثر الذهب على الفقراء . الجبرتي : المصدر السابق ج١ ص ٤٢٢ .

٢- إبراهيم الطيب : مصباح السارى ونزهة القارى ص ٢٢ .

٣- شكرى : المرجع السابق ص ٢٤ .

٤- الجبرتي : المصدر السابق ج١ ص ٣٨٥ .

يقضى على الدين الإسلامى ويرغم الأهالى على اعتناق المسيحية ، ونتيجة لذلك ازداد حماس أتباع أبى الذهب وتمكنوا من إحراز النصر على قوات على بك الذى ظل يقاتل حتى أصيب بجرح فى وجهه وسقط من على جواده وأخذ أسيرا ، وبقي فى الأسر سبعة أيام حتى مات فى الخامس عشر من صفر ١١٨٧ هـ الموافق ٨ مايو ١٧٧٣ م ، وقد شكك الجبرتى فى طريقة موته ، فقال : "فأقام سبعة أيام ومات والله أعلم بكيفية موته"^(١) .

وبوفاة على بك الكبير أسدل الستار على أكبر محاولة عرفتها مصر للتخلص من السيادة العثمانية وإعلان استقلالها واستأثر محمد أبو الذهب بالنفوذ والسلطة بمساندة العثمانيين ، ومعاضدة الباب العالى له حيث "راسل الدولة العثمانية وأظهر لهم الطاعة"^(٢) واعترف بسيادتهم على مصر ، ولكن حكمه لم يستمر طويلا حيث وافته المنية فى الثامن من يونيو ١٧٧٥ م أثناء محاربته لقوات ظاهر العمر فغير ذلك موازين الأمور داخل مصر .

وقد اختلفت آراء الباحثين حول وفاة أبى الذهب فمنهم من ذهب إلى أنه مات بداء السكتة القلبية ، ومنهم من قال إنه مات بمرض الحمى ، ومنهم من ذكر انه أصيب بمرض خبيث توفى على أثره نتيجة لأنه هدم ديرا للرهبان وقتل من فيه^(٣) . وعلى كل حال فبعد وفاة أبى الذهب وقعت البلاد فى حالة من الفوضى فقد شرع كبار أمراء المماليك فى التنازع على السلطة وانقسموا إلى شيع وطوائف ، ولم تهدأ لهم ثائرة حتى تمكن مراد بك وإبراهيم بك من الاستئثار بالحكم واقتسام مشيخة البلد وإمارة الحج فيما بينهما ، وفى عهدهما ازدادت أحوال مصر سوءا فقد شاعت فيها الفوضى وانعدم الأمن ، وانقلت زمام الأمور من يد العثمانيين^(٤) . ولما خرجت الأمور عن حدودها وتدهورت الأحوال لدرجة أن أصبح الأجانب فى مصر رهينة تصرفات مراد بك وإبراهيم بك وأخذا فى ابتزاز قناصل الدول الأوربية وتهديدهم بتخريب كنائس الاسكندرية إذا لم يدفعوا لهما الأموال التى يطلبانها ، تقدمت الدول الأوربية بشكواها إلى الباب العالى فى عام ١٧٨٦ . فأرسلت الدولة العثمانية أسطولا بقيادة حسن قبطان باشا فتمكن من السيطرة على زمام الأمور^(٥) ، والدخول إلى القاهرة فى أغسطس ١٧٨٦ م والحد من سيطرة هذين المملوكين إلى درجة كبيرة ، وظل الحال على هذه المنوال حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر فى يوليو من عام ١٧٩٨ م .

١- الجبرتى : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٨٥ . وانظر أيضا فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٣٠ .

٢- الجبرتى : المصدر السابق جـ ١ ص ٤٢٣ .

٣- تاريخ الأمير حيدر : نزعة الزمان فى تاريخ جبل لبنان ، القاهرة ، مطبعة السلام ١٩٠٠ م ص ٨٢٤ .

٤- Charles Roux : L' Angleterre de Suez, et l' Egypte PP. 20-21

٥- Ibid : P. 195

عدوته جميع الحاميات التي كان قد أقامها فى البلاد التى فتحها^(١) . ويختلف المؤرخون فى أسباب ذلك وفيما يلى نعرض لآرائهم :

١ - اجتماع القائد العثماني عثمان باشا بأبى الذهب فى خيمته واقناعه بأن ما قام به ضد السلطان العثماني يخالف الشرف والأمانة ، كما أن استيلاءه على دمشق عنوة يخالف الدين وخصوصا أن دمشق من أهم مراكز الحج الرئيسية إلى الحرمين ولا يصح انتهاكها .

٢ - إرسال عثمان باشا صرة ثقيلة من الدنانير إلى محمد أبى الذهب حتى يترك دمشق ويعود إلى مصر^(٢) .

٣ - أن أبى الذهب حصل على وعد من السلطان العثماني بالعمو عنه ، وتوليته شياخة البلد بدلا من على بك الكبير^(٣) .

٤ - أن أبى الذهب كان يخشى من غضب الدولة العثمانية بعد أن تفرغ من حروبها مع الروسيا فتقوم بالانتقام منه ومن قواته فى بلاد الشام .

٥ - أن العثمانيين نجحوا فى إثارة النزعة الدينية عند أبى الذهب ، وأوهموه بأن من يعصى السلطان كأنه يعصى الله ورسوله ، كما أثبتوا له أن اتصال على بك الكبير بالروس أعداء الإسلام واتسيافه وراء أفكار كاترين امبراطورة الروسيا كل ذلك يعد خيانة للإسلام والمسلمين .

ولما وصلت أنباء انقلاب أبى الذهب على سيده إلى القاهرة لم يكن هناك متسع من الوقت لتجهيز الجيوش لملاقاته ، ومع ذلك فقد أرسل على بك جيشا لمقاتلته بقيادة إسماعيل بك غير أن هذا الجيش انضم إلى أبى الذهب ، وعندئذ لم يجد على بك مناصا من الانسحاب والالتجاء إلى حليفة ظاهر العمر فى عكا ، ومشاركته فى مواجهة العثمانيين فى بلاد الشام .

وفى بلاد الشام أعد على بك العدة للعودة إلى مصر ، فجمع حوالى خمسة آلاف جندى تقدم بهم لملاقاة أبى الذهب الذى أرسل جيشا لملاقاته يصل تعداده إلى حوالى اثنتى عشر ألفا^(٤) . وفى الصالحية دارت المعركة الفاصلة وانتصر أتباع على بك فى بداية الأمر، وانفتح الطريق أمامهم إلى القاهرة ، ولكن أبى الذهب لم يلبث أن أثار الحماس فى أتباعه متهما على بك بالكفر والاحاد ، كما رماه بالتحالف مع الكفار لاختضاع البلاد حتى

١- محمد رفعت رمان : المرجع السابق ص ١٦٩ .

٢- شكرى : المرجع السابق ص ٢٧ .

٣- تاريخ جودت جـ ١ ص ٣٤٦-٣٤٧ .

٤- شكرى : المرجع السابق ص ٢٨-٢٩ . ٣٤ .

موقف الدولة العثمانية من توسعات محمد علي

في بلاد الشام

(دراسة في وثائق عابدين)

تعتمد هذه الدراسة على مجموعة منتقاة من وثائق عابدين الخاصة ببلاد الشام والتي ترجمت من التركية إلى العربية تحت إشراف الحكومة المصرية في عهد الملك فؤاد بهدف أحياء ذكرى والده إسماعيل وجديه إبراهيم ومحمد علي.

و الواقع أن بلاد الشام كانت مطمح أنظار محمد علي منذ حروبه في الجزيرة العربية^(١) فقد طلب من السلطان إضافة منصب إيالة الشام إلى منصب والي مصر مبرراً ذلك بإمكانية جمع الجنود من هناك، وتكوين الجيوش لمحاربة رجالات الدعوة السلفية، ولكن طلبه كان مصيره الإهمال.

ولما قامت حرب المورة كرر محمد علي طلبه إلى السلطان بأن يضاف إليه حكم سورية بجانب حكمه لمصر تعويضاً عما تكبده من خسائر في هذه الحرب، ونظراً لرفض السلطان لهذا الطلب للمرة الثانية حاول محمد علي ضم هذه البلاد بالقوة لاستغلال مواردها التي تقتدر إليها مصر، وحتى تكون حاجزاً حصيناً بين مصر والدولة العثمانية إذا ما فكرت الأخيرة في محاربهته.^(٢)

وعن التوقييت الذي اختاره محمد علي لمحاربة السلطان، ومحاولته اقتناص بلاد الشام منه فيمكن القول أنه اختار الوقت المناسب لذلك.

(١) أسد رستم: المحفوظات الملكية المصرية - بيان بوثائق الشام - بيروت، ١٩٤٠، ص ١٢٣.

(٢) عبد الرحمن الرفاعي: عصر محمد علي، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥١، ص ٢٤٤.

ففى الوقت الذى كانت فيه الدول الأوروبية منهمكة فى مسائلها الداخلية وتتنازع كل منها السيادة على أوروبا بعد تصفية الإمبراطورية النابليونية وفى الوقت الذى أصبحت فيه الدولة العثمانية تمثل رجل أوروبا المريض المنهك القوى نتيجة للثورات الداخلية التى لاحقتها فى كل جانب ولحروبها المتعددة التى خرجت منها منهوكة القوى .

وفى الوقت الذى قامت فيه الدولة العثمانية بتصفية الانكشارية الذين كانوا بمثابة العمود الفقرى للجيش العثمانى انتهز محمد على حاكم مصر كل هذه الفرص لظهور قوته أمام السلطان محمود الثانى وبخاصة أن جيشه كان فى حالة طيبة ، ولأنه كان قد اجتذب اليه الأمير بشير الشهابى كبير أمراء لبنان فى ذلك الوقت (١) .

وقد تذرغ محمد على فى ذلك بنزاعه مع عبد الله باشا أنجزار والى صيدا (٢) الذى كان قد شجع الآلاف من الفلاحين المصريين الهاربين من عسف حياة ضرائب السلطة فى مصر باللجوء الى ولايته ورفضه تسليمهم اليه (٣) فاتهمه بسوء نيته تجاهه ، وعدم وفائه بدين عليه وابتزازه لأموال بعض التجار المصريين واستيلائه على تجارتهم فى بلاد الشام مدعيا أنها لبعض التجار من أهل نابلس (٤) ومساعدته على تهريب بعض البضائع من الجمارك المصرية ، ومن هنا قرر ارسال

(١) نفسه ص ٢٤٨ .

(٢) ولاية صيدا كانت قاعدتها عكا ولذلك سميت أحيانا بولاية عكا .

(٣) Dodwell, H. : The Founder of Modern Egypt A. Study of Muahammad Ali, Cambridge at the University Press 1931 p. 108.

ويذكر محمد كرد على أن عدد هؤلاء كان ستة آلاف ، وأن عبد الله باشا امتنع عن تسليمهم ل محمد على بحجة أن قطريهما يتبعان سلطان واحد .
للتفاصيل انظر : خطط الشام ج ٣ ، بيروت - دار العلم للنابليين ١٩٧٠ ص ٥١ .

(٤) أسد رستم : المصدر السابق ج ١ ص ١٢١ .

حملة لتأديبه ، وعين ابنه ابراهيم باشا قائدا لها وبالرغم من محاولات السلطان العثماني التدخل لاصلاح ذات البين ورغبته فى اطفاء فتيل الحرب بينهما^(٥) ، فان محمد على كان مصرا على تأديب هذا الوالى ، فأرسل طلائع جيشه الى عكا فى ١٤ اكتوبر ١٨٣١ فاستولت فى طريقها على يافا وحيفا دون مقاومة تذكر^(٦) ، وفى ٨ ديسمبر من نفس السنة ضربت الحملة المصرية حصارها حوّل عكا وأرسل ابراهيم باشا انذارا الى والى عكا يطالبه فيه بتسليم القلعة حتفنا للدماء^(٧) ونتيجة لرفض عبد الله باشا لهذا الانذار أمر ابراهيم باشا بضرب عكا بالقنابل من جميع الجهات^(٨) .

وحرصا على عدم انفلات الأمر من الدولة العثمانية كرر السلطان محاولاته لرأب الصدع بين الجانبين المتحاربين ، فأرسل مندوبا الى محمد على ينصحه بالعدول عن الحرب منعا لسفك دماء المسلمين ، وحرصا على عدم اطلاق الرعية محذرا له من عواقب الاستمرار فى الحرب ولما دارت المفاوضات بين المندوب السلطانى ومحمد على تظاهر الأخير بالاخلاص للدولة العثمانية ، وألح أن الهدف من حربه هو المحافظة على شرف مصر الخالد واعادة مجدها فى ظل الدولة العثمانية ، وانه فى حربه يحارب حاكما - شبه مستقل - خارجا عن طاعة الدولة^(٩) كما ألح

(١٥) محافظ عابدين . محفظة رقم ١٤ (بحربر) ملخص الوثيقة رقم (٢١) بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٢٤٦ هـ .

(١٦) أسد رستم : المصدر السابق ج ١ ، ص ١٢٨ الوثيقة رقم ٣٤٠ .

(١٧) نفسه ص ١٣٩ . الوثيقة رقم ٢٣١ .

(١٨) داود بركات : البطل الفاتح ابراهيم وفتح الشام ١٨٣٢ القاهرة : الطبعة الرحمانية . د.ت ص ٧ ، ص ٩ والجدير بالذكر ان القنابل وقتئذ لم تكن سهوى كتل من الحديد والفولاذ المستدير التى تدك وتهدم ولا تنفجر .

(١٩) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ٢٥٠ ، ص ٢٥٢ .

على لسان ابنه ابراهيم بأنه لا مانع من تسوية الموقف اذا قامت الدولة
العثمانية بعزل عبد الله باشا والى عكا وتعيين والى آخر حائرا ثقة
محمد علي .

ولما تعثرت المفاوضات نتيجة لعدم موافقة السلطان على مطالب
محمد علي ، أمر الأخير ابنه ابراهيم بمواصلة الحرب وتشديد الحصار
على عكا حتى يتم فتحها غير آبه بنصائح السلطان ولا بوعيده ، ومن
هنا اتهمه السلطان ببذر بذور الفتنة والفساد بين الناس
واستصدر فتوى بأن محمد علي وابنه ابراهيم قد خانا الدولة ومرقا
عن دين الله وذلك لاستنفار الأهل ضدّهما ، كما أمر بعزل محمد علي
عن منصبه ، مما أحدث ضجة عنيفة داخل الأوساط الدينية في مصر
حول شرعية حكمه ، وقد واجه محمد علي هذه الضجة بالعنف فأعدم كل
من وصل الى مسامعه أنه أثار هذه الضجة ، ومن بينهم بعض علماء
الأزهر (١) .

ونظرا لفشل المحاولات السلمية مع محمد علي طلب السلطان من
والى حلب اعداد العدة لمحاربهه وتأديبه في نظير تنصيبه حاكما عاما
على بلاد الشام ، وأن تكون له اليد الطولى في تصريف أمورها (٢) .

ولكى يتفادى محمد علي المصاعب التي يمكن أن تواجه قواته أمام
حصون عكا ، وتوفيرا لجهودها القتالية أوعز الى ابنه ابراهيم بمحاولة
استمالة أفرادها من جنود عبد الله باشا بالمال عن طريق دفع رواتبهم
المتأخرة ووعدهم بالحماية والتأمينات الكافية ولكن ابنه لم يرحب بهذه
الفكرة بل رأى أنه من العار فعل ذلك (٣)

(١) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٢٢ ترجمة الوثيقة رقم (٥٨)
بتاريخ ١٣ رمضان ١٢٤٧ (رسالة من ابراهيم باشا الى محمد علي) .

(٢) Dodwell : op. cit., p. 110 . (2)

(٣) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٤١ ترجمة الوثيقة رقم ٤٤ بتاريخ
٣ رجب ١٢٤٧ هـ (مكاتبه من ابراهيم باشا الى محمد علي) .

ونتيجة لذلك طلب ابراهيم من والده ضرورة الاهتمام بالأسطول المصرى وتجهيزه بالمدافع والأسلحة اللازمة بعد أن أثبت عدم كفايته فى دك حصون عكا ، وحتى يستطيع مناوأة الاسطول العثمانى وعرقلة جهوده فى مساعدة المدافعين عن عكا (١٠) .

وخلال تلك الفترة بدأت الدولة العثمانية استعدادتها للهجوم على القوات المصرية المحاصرة لعكا بهدف تطويقها وطردها من بلاد الشام مما أدى الى تخرج الموقف ، وجعل ابراهيم باشا يتحرك بجزء كبير من قواته لمواجهة الجيوش العثمانية قبل وصولها الى عكا (١١) تاركا بعض القوات أمام عكا لمتابعة حصارها .

وقد نجح ابراهيم باشا فى - خلال حروبه مع القوات العثمانية- انتزاع طرابلس منهم ، وتعقبهم فى حمص وهزيمتهم فى سهل الزراعة مما أوقع الاضطراب فى صفوفهم وألجأهم الى الفرار (١٢) .

وخلال غياب ابراهيم باشا عن قواته المحاصرة لعكا انتهز عبد الله باشا الفرصة فأمر بخروج قواته من معانقها والهجوم على القوات المصرية ، وقد نجح فى تدمير بعض استحكامات هذه القوات وردھا الى الوراء ، مما جعل ابراهيم باشا يسرع فى العودة الى عكا ، ويعيد احكام حصارها برا وبحرا .

ولما طال أمد الحصار أرسل ابراهيم باشا رسولا الى والى عكا للتفاوض معه فى أمر الكف عن سفك الدماء ، وبأن يقوم بتسليم القلعة

(١) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٢٢ ترجمة الوثيقة رقم ٥٨ بتاريخ ٢٣ رمضان ١٢٤٧ .

(٢) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٥٤ .

(٣) سليمان ابو عز الدين : المرجع السابق ص ٨٢ - ٨٣ .

فى مقابل أعطائه الأمان ، لكن عيد الله باشا رفض هذه الفكرة ، وقام
رجاله بإطلاق نيران بنادقهم على هذا المندوب^(٤) ، مما جعل ابراهيم
باشا يقوم بالهجوم على القلعة فى محاولة منه للضغط على رجالها ،
وبالرغم من نجاح جيشه فى الاستيلاء على السور الشرقى من قلعة عكا
وتدمير المدافع الموجودة عليه^(٥) فإنه لم يتمكن من احتلال المدينة بل
ولتحرير المدينة استيسال المدافعين ، واصابة بعض ضباطه بجراح^(٦) ،
ولتخرج الموقف طلب ابراهيم باشا من الأمير بشير الشهابى القدوم اليه
— ومعه بعض قواته — الى عكا للمساعدة ، ولما تباطأ الأمير بشير فى
الأمر شكاه ابراهيم الى والده ، فأرسل محمد على الى الأمير بشير
كتابا يلومه على تأخره وينذره بسوء العاقبة اذا خالف عهده معه ووعد
له وتوعده بأنه اذا أجم من الانضمام لابراهيم فإنه سيجرد عليه
خمساً من الآلايات^(٧) لتخريب مساكنه وزرع أرضها تينا ، وقبل وصول
هذا الكتاب الى الأمير بشير كان قد تحرك على رأس مائه فارس الى
عكا (٥) .

وبالرغم من ذلك فان محمد على كان قلقاً من جراء عدم سقوط
القلعة^(٦) وثبات المدافعين عنها مما جعله يستدعى بعض قواته الموجودة

-
- (١) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٨
بتاريخ ١٠ ذى الحجة ١٢٤٧ (مكاتبة من ابراهيم باشا يكن الى محمد على) .
(٢) أسد رستم وفؤاد البستانى : المصدر السابق ص ٨٢٢ .
(٣) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١١٠
بتاريخ ١١ شوال ١٢٤٧ هـ .
(٤) أسد رستم : المصدر السابق ج ١ . الوثيقة رقم ٣٦٢ ص ١٣٥
(٥) داود بركات : المرجع السابق ص ١١ .
(٦) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٥٤ .
بتاريخ ٢١ رمضان ١٢٤٧ هـ .

فى كريت للمساعدة ، كما فكر فى الحضور بنفسه الى عكا لمراقبة الموقف
هناك (١) .

والسؤال المطروح هل ترجع الصعاب التى واجهها ابراهيم باشا
وقواته الى مناعة أسوار عكا واستيسال جنودها فقد أم أن هناك أسبابا
أخرى .

الواقع أن الخطة التى سلكها الباب العالى ضد محمد على بتجزيده
من منصبه وإباحة دمه ، قد أثارت الرأى العام الاسلامى ضده وشجعت
المدافعين عن عكا على الصمود ، وجعلت بعض علماء المسلمين يصوبون
لعناتهم على محمد على ويتهمونونه بالخروج عن طاعة السلطان مما زاد
من اصرار والى عكا على المقاومة .

ونتيجة لطول أمد الحصار ، وعدم قدرة القوات المصرية على اقتحام
عكا تزايدت الشائعات بين الناس داخل مصر حول مصير الخيمة مما
جعل محمد على يصدر فى ٨ مارس ١٨٣٢ أوامره المشددة بحرمان
إذاعة أبناء حصار عكا داخل مصر ، وبضرب أعناق مروجى الشائعات
ولما لم يرتدع بعض المرجفين لأوامره أمر بضرب أعناق أربعة منهم
وزج بعشرين آخرين فى غيابات السجن ليكونوا عبرة لكل « الذين
لا يستطيعون أن يمسكوا لسانهم » وقد عرضت الحكومة على الناس
جثتين كتب عليهما العبارة الآتية « هذا هو العقاب الذى يحل بمن
يقولون السوء عن الحكومة خفية » (٢) .

وعن محاولات كل من محمد على وعبد الله باشا لرفع روع قواتهما
الموجودة داخل أسوار عكا وخارجها فقد أرسل محمد على أمرا الى

(١) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٦٧
بتاريخ ١٦ ذى الحجة ١٢٤٧ (مكتبة من ابراهيم باشا الى محمد تلى) .
(٢) بدير كريبنتس : ابراهيم باشا — ترجمة محمد بدران . القاهرة —
مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٢٧ ص ١٥٩ .

قواته يبلغهم فيه تحياته وثقته فيهم وآماله الكبيرة التي ينتظرها منهم من حيث اظهار الشجاعة وبذل التضحية والثبات والغيرة والاجتهاد خلال الزحف على عكا مذكرا اياهم بالانتصارات التي حققوها فى العديد من المعارك السابقة ، ومبشرا لهم بقرب سقوط عكا (١) .

أما عن عبد الله باشا ، فقد استصدر من علماء عكا ورجال الدين فيها فتوى تتضمن أن من يموت من عساكر محمد على فمصيره الى النار (٢) ، ومن يموت من عساكره فمصيره الجنة وقد استند علماء عكا فى اصدار هذه الفتوى على ما أصدرته الدولة العثمانية من أن محمد على و ابراهيم باشا قد خانا الدولة ، ومرقا عن دين الله .

ولما كان السيف وامتشاق الحسام هما الطريق الوحيد الموصل لتحقيق النصر ، فقد قام ابراهيم باشا بمعاينة الأعمال العسكرية التى كلف بها جنوده ، واتخذ التدابير اللازمة لسرعة نقل ذخائر جيشه ومهماته الى المواقع الجديدة كما حدد المتخاذلين من ضباطه بالعقاب الصارم (٣) . وطالبهم بأن يكونوا صناديد عندما يحمي ويطيس المعركة ، كما استدعى من الاسكندرية الكولونيل « روماي » الايطالى ، الذى كان قد علانجمه خلال حصار قلعة موسولينى باليونان ، فوصل مع بعض زملائه الى معسكر عكا وبدأوا فى تغيير شكل الحصار (٤) وبناء طوابى المدفعية المناسبة والاقتراب من سور المدينة حتى تصل قنابل المدفعية اليها بطريقة سليمة (٥) .

-
- (١) أسدرستم وفؤاد البستاني : المصدر السابق ج ٣ ص ٨٣٤ .
 - (٢) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٢٥ وثيقة رقم ١٤٠ بتاريخ ٢١ محرم ١٢٤٨ هـ .
 - (٣) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٦٧ بتاريخ ١٦ ذى الحجة ١٢٤٧ هـ .
 - (٤) داود بركات : المرجع السابق ص ١٢ .
 - (٥) أسدرستم وفؤاد البستاني : المصدر السابق ص ٨٣٤ .

ونتيجة لتدهور الأحوال فى عكا ، وتناقص أفراد حاميتها وقلة المواد الغذائية ، وتفشى الأمراض بين الناس راودت عبد الله باشا فكرة التفاوض مع ابراهيم باشا فى أمر الصلح ، فرجع أعلاما بيض فوق أسوار عكا ، وقد وافق ابراهيم باشا على هذه المبادرة وأمر جنوده بإيقاف الضرب خصوصا بعد أن ارسل عبد الله باشا مندوبا عنه للتفاوض (٤) ، ونظرا لتعثر المفاوضات عدل حاكم عكا عن فكرة الصلح وبخاصة بعد أن ابلغته الحكومة العثمانية بقدوم قوات جديدة من جيشها لمساندته (٥) ونتيجة لذلك أمر ابراهيم باشا جيوشه باستمرار اطلاق النار على عكا حتى يتم فتحها عنوة (٦) ، وقد أخذت هذه القوات تصلى عكا نارا حامية ليلا ونهارا لمدة ثلاثة أيام متتالية وبعدما قاد ابراهيم باشا الهجوم على عكا ، وبعد كر وفر تمكنت القوات المهاجمة من الصعود الى القلعة عن طريق برج الباب وناحية الزاوية وأخذت فى التشديد على المدافعين حتى ضعفت مقاومتهم (٧) وظهر الضجر والسآمة عليهم وسقط العلم من أيديهم وتم احتلال القلعة (٨) فى ٢٧ مايو ١٨٣٣ ، وبذلك زالت أكبر العقبات أمام القوات المصرية الزاحفة على بلاد انشام بعد صمود دام أكثر من ستة شهور .

ونتيجة لدخول القوات المصرية مدينة عكا وصل وقد من أعيانها وعلمائها الى ابراهيم باشا طالبا الرحمة والعفو والأمان ، فوافق ابراهيم على طلبهم ، ووعدهم بتأمين الأهالى فى أرواحهم وأموالهم (٩)

-
- (١) حيدر الشهابى : من تاريخ الأمر حيدر المسمى الروض النضر ج ٢ ، القاهرة . مطبعة السلام . ١٩٠١ ص ١٠٢٢ .
(٢) سليمان أبو عز الدين : المرجع السابق ص ٨٠ .
(٣) حيدر الشهابى : المصدر السابق ص ١٠٢٥ .
(٤) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الانادة رقم ١٢٠ بتاريخ الأحد ٢٧ ذى الحجة ١٢٤٧ هـ .
(٥) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥١ بتاريخ ٣٠ ذى الحجة ١٢٤٧ هـ (مكتبة من ابراهيم باشا الى سلى بك) .

التنافس على الخديوية المصرية

بين الامير حلیم والخديو توفيق

د . عبد المنعم الدسوقي الجيمى
كلية التربية بالفيوم - جامعة القاهرة

بعد أن تولى اسماعيل عرش مصر وجه جهوده الى تغيير نظام توارث العرش الذى فرضته تسوية ١٨٤١ والذى يقضى بأن يؤول حكم مصر الى الاكبر فالأكبر من ذرية محمد على ، فسعى الى الباب العالى حتى ينحصر حكم مصر فى ذريته .

ويدفعنا رغبة اسماعيل فى تغيير نظام الوراثة الى التساؤل عن
المباعث الذى كان وراء ذلك ؟

لقد كانت هناك خلافات حادة بين اسماعيل من ناحية وبين أخيه من أبويه مصطفى فاضل وعمه عبداللطيم^(١) من ناحية أخرى ولم يكن اسماعيل يخفى كرهه لهما وحقداه عليهما ، وكان الاميران أيضا لا يكتمان من ناحيتهما كراهيتهما لاسماعيل ، ومن أجل ذلك سعى فى حرمانهما من وراثة العرش وجعلها فى ذريته من صلبه^(٢) فاتصل بحاشية السلطان وأخذ ينفق الاموال الطائلة ويجزل العطايا لأرباب

(١) هو الامير محمد عبد اللطيم بن محمد على الكبير . وتد ولد فى عام ١٨٢٦ وكان بحسب فرمان الوراثة الاول أحق بالعرش من الخديو توفيق للتفاصيل انظر : الراعى : الثورة العربية والاحتلال الانجليزى ، القاهرة - النهضة المصرية . الطبعة الثانية ص ٦٦ .
(٢) نفسه ص ٧٤ .

التنافس على الخديوية المصرية بين الامير حلیم والخديو توفيق

د . عبد المنعم الدسوقي الجبمى
كلية التربية بالفيوم - جامعة القاهرة

بعد أن تولى اسماعيل عرش مصر وجه جهوده الى تغيير نظام توارث العرش الذى فرضته تسوية ١٨٤١ والذى يقضى بأن يؤول حكم مصر الى الاكبر فالاكبر من ذرية محمد على ، فسمى الى الباب العالى حتى ينحصر حكم مصر فى ذريته .

ويدفعنا رغبة اسماعيل فى تغيير نظام الوراثة الى التساؤل عن الباعث الذى كان وراء ذلك ؟

لقد كانت هناك خلافات حادة بين اسماعيل من ناحية وبين أخيه من أبيه مصطفى فاضل وعمه عبدالحلیم^(١) من ناحية أخرى ولم يكن اسماعيل يخفى كرهه لهما وحقده عليهما ، وكان الاميران أيضا لا يكتفان من ناحيتهما كراهيتهما لاسماعيل ، ومن أجل ذلك سعى فى حرمانهما من وراثة العرش وجعلها فى ذريته من صلبه^(٢) فاتصل بحاشية السلطان وأخذ ينفق الاموال الطائلة ويجزل العطايا لأرباب

(١) هو الامير محمد عبد الحلیم بن محمد على الكبير . وقد ولد فى عام ١٨٢٦ وكان بحسب فرمان الوراثة الاول احق بالعرش من الخديو توفيق للنفاصيل انظر : الرافعى : الثورة المرابية والاحتلال الانجليزى ، القاهرة - النهضة المصرية . الطبعة الثانية ص ٦٦ .

(٢) نفسه ص ٧٤ .

الدولة ويتترف الى أصحاب الحل والعقد هناك ويشكو لهم ما يدبره
أخوه وعمه له من مكائد ، واتهمهما بأنهما يعملان على قتله .

وقد اغتتم حكام الآستانة فرصة التنافس على السلطة بين
اسماعيل وأخيه وعمه فأخذوا يبتزون الأموال من سائر المتنافسين
ولكن اسماعيل هو الذى فاز فى مسعاه لأنه كان أكثر مالا وأرسل اليه
السلطان فرمانا يقضى بأن تنحصر خديوية مصر فى ذريته ونتيجة للصراع
بين اسماعيل وابن أخيه وعمه آثر أخوه مصطفى فاضل مغادرة البلاد
والإقامة فى باريس تارة والآستانة تارة أخرى ومع ذلك لم يهدأ للخديو
اسماعيل بال حتى باع له أخوه كل ما يملكه من أراضي وأملاك فى
مصر (٣) .

وقد أخذ الأمير مصطفى فاضل يحيك الدسائس لأخيه من الخارج
أيضا على حكومة السلطان لتغييرها فرمان الوراثة فانضم
الى أحرار تركيا الذين كانوا يعملون على قلب نظام الحكم ، والتخلص
من استبداد السلاطين ، ثم ما لبث أن اعتراه مرض الاستسقاء فمات
فى عام ١٨٧٥ (٤) .

أما البرنس حلیم فقد ظل فى قصره بشبرا مما أثار مخاوف
الخديو اسماعيل منه فأخذ يضيق عليه وعلى حاشيته والمقربين اليه
حتى انزوى بعيدا عن الناس (٥) ، ولم يكتف اسماعيل بذلك بل طلب

(٣) أمين سامى: تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا . المجلد الثانى من
للجزء الثالث . القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٣٦ ، ص ٤٥٠ .

(٤) الياس زاخورة : مرآة العصر فى تاريخ ورسوم اكابر الرجال فى
مصر ج ١ القاهرة - المطبعة العمومية ١٨٩٧ ص ٥٩ .

(٥) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ج ٤ ص ١٤٤ .

Douin : Histoire Du Regne Du Khedive Ismail. vol II Soulié
Royale De Géographie D' Egypte le Caire. 1933 p. 90.

من عمه مصادرة البلاد ، ولما رفض طلبه اتهمه اسماعيل بالتآمر ضده ، وأصدر أمرا بابعاده « عن الديار المصرية والسفر الى المكان الذى يريده » بحجة أن تواجده في مصر يتسبب عنه اختلال الأمن ، وتدهور النظام في البلاد .

وقبل أن يغادر حليم البلاد باع جميع أملاكه للخديو اسماعيل بحجة كتبت في ١٤ أبريل ١٨٦٦ ، كما باع له أيضا جميع أملاكه المنقولة التى يملكها في القطر المصرى^(٦) . وفى مقابل ذلك حدث اتفاق بين اسماعيل وحليم في ١١ يوليو ١٨٧٠ يقضى بأن يتقاضى البرنس حليم مبلغ ثلاثين ألف جنيه تصرف له بمقتضى ثمانين « بون » يتم صرفهم على أربعين سنة بواقع بونين سنويا في نظير أن يتنازل البرنس عن أراضيه وامتيازاته وحقوقه في الموارث الشرعية التى تتوول إليه من الأقاليم^(٧) ، والآ تطلأ قدمه أرض وادى النيل .

ونتيجة لهذا الاتفاق غادر البرنس حليم القاهرة الى الاسكندرية قاصدا الاسكندرية^(٨) : وبذلك تخلص اسماعيل من منافس أرق عليه

(٦) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ القاهرة - الطبعة الأولى ص ٣٧١ .

(٧) دار الوثائق . محافظ مجلس النظار . محفظة رقم ١٥ محاضر جلسات مجلس النواب من أكتوبر ١٨٧٨ الى ديسمبر ١٨٧٩ تحت عنوان « مسألة البرنس حليم باشا » .

(٨) الوقائع المصرية العدد ٤٧٧ فى ١٠ أكتوبر ١٨٧٢ . وقد حافظ اسماعيل على تنفيذ هذا الاتفاق حتى عندما اتخذ الأوربيون من حليم أداة ارهاب ضد الخديو ، ولكن هذا الاتفاق لم يلبث أن الفى بعد عزى اسماعيل ، فقد قرر مجلس النظار ايقاف صرف البونيات الموجودة حريف البرنس حليم ابتداء من عام ١٨٨٠ ، واعادة حقوق الموارث التى كان قد تنازل عنها الى الخديو اسماعيل ابتداء من مايو ١٨٨٠ .

انظر : محافظ مجلس النظار ، المحفظة السابقة الذكر . وقد احتج حليم على ايقاف ما تم الاتفاق عليه لدى بعض الحكومات الأوربية وطلب الحضور الى مصر ليعرض قضيته بنفسه ، ولكن الخديو ورجال حكومته رفضوا طلبه ، ورغم أن بعض انصاره روجوا له هذه المنكرة فى أوروبا فان احتجاجه ذهب سدى .

روز شتين : المرجع السابق ص ١٠٤ .

حياته ، وكان تواجده بغير مصدر ازعاج له وسيف مشتط فوق رأسه .

ورغم ذلك فلم يهنا اسماعيل بالاستمرار في حكم مصر فبسبب سوء ادارته للبلاد حاولت الدول الأوروبية اقناعه بالتنازل عن العرش لابنه توفيق ، كما رغب السلطان في خلع وتولية البرنس حلیم مكانه ، واعادة نظام الوراثة الأول طبقاً لتسوية ١٨٤٠ - ١٨٤١ ، ولكنه رأى أن ذلك يتطلب تعضيداً معنوياً من جانب فرنسا وانجلترا خاصة اذا ما توجه حلیم الى مصر في حراسة قوة عثمانية لاخلاله بالقوة محل اسماعيل^(٩) .

ولما رفض اسماعيل طلب انجلترا وفرنسا رسمياً التنازل عن الحكم لابنه توفيق لجأت الدولتان وانضمت اليهما المانيا الى تهديده بتغيير نظام وراثة العرش في غير صالح ابنه توفيق ، وذلك بتوليته البرنس حلیم بدلاً منه^(١٠) .

وعلى كل حال فقد حسم الأمر بصدور قرار السلطان بخلع اسماعيل لسوء حكمه واسرافه ، وتولية ابنه توفيق مكانه ، ونتيجة لذلك تجددت آمال البرنس حلیم في اعتلاء عرش مصر ، حيث كان حلیم يعتقد أنه أكثر كفاية من توفيق في تولى هذا المنصب ، ومن هنا بدأ الصراع بينهما ، وقد انتهز حلیم فرصة أن الخديو توفيق كانت تنقمه التجارب في حكم البلاد ، ويتردد في اتخاذ القرارات ، ويستسلم في بعض الأوقات الى حد الاستكانة^(١١) يضاف الى ذلك

(٩) د. احمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ٢٠٥ .

(١٠) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان - تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ١٨٢٠ - ١٨٩٩ القاهرة - دار المعارف ١٩٦٢ .

(١١) دار الوثائق : الارشيف النمساوى ، محفظة رقم ١٧ ملحق تقرير

الكونت هنجولدر ص ٧ .

كراهية العسكريين له واتهامهم اياه بعدم الكفاية لادارة الحكومة ،
وعدم انصافه بحرمان المصريين من الرتب العسكرية ومحاباة الأتراك
وغيرهم بها (١٣) .

انتَهز حليم موقف الضعف هذا من جانب توفيق وأخذ يسعى
للعودة الى مصر ، ومن أجل ذلك أخذ يتصل برجال المايين لاقتناع
السلطان بذلك .

وخطى حليم خطوة أخرى لتحقيق أهدافه ، فعندما قامت الثورة
العربية حاول استغلال أحداثها للوصول الى عرش مصر فجدد بعض
أتباعه أمثال يعقوب صنوع وحسن موسى العقاد وعبد السلام المويلحي
للاتصال بالعربيين وترويج أفكاره واظهار أحييته بعرش مصر من
توفيق ، وقد قام يعقوب صنوع بالدعاية للبرنس حليم عن طريق
جريدته « أبو نظارة زرقاء » التي كان يصدرها من باريس و « تدخل
مصر بطرق مختلفة وتوزع سرا ومجانا بين صفوف الجيش
المصرى » (١٣) .

وكانت هذه الجريدة تثبت الدعاية للبرنس حليم ، وتهاجم توفيق
ونشر يعقوب صنوع في جريدته ثلاثة صور رمزية احداها تمثل الماضي
(اسماعيل) والثانية تمثل الحاضر (توفيق) والثالثة تمثل المستقبل
وهي صورة حليم باشا ، كما أنه هاجم الخديو توفيق ونعته بأقبح
النعوت مثل « الواد الأهل الخسيس » والذي « خان الأوطان وباع

(١٢) محافظ الثورة العربية : محفظة رقم ١٣ قضايا المتهمين -
دوسيه ٢٣٠/ج .

(١٣) دار الوثائق : البرقيات المتبادلة بين القاهرة والاستانة اثناء
الثورة العربية .

رعبته كالغنيم للإنكليزيين» (١٤) أما عن البرنس حلیم فقد وصفه بالسليح
الحبيب القريب إلى قلب سائر المصريين (١٥) وبأنه فريد عصره (١٦) .
كما ذكر المصريين بأنه ابن المؤسس الأول للحكومة المصرية (١٧) يضاف
إلى ذلك أنه أشاد بحليم وندد بالخدوي توفيق في أسلوب رمزي قائلاً:
« ربنا كريم حلیم يحيب لنا الفرج عن قريب لأن « توفيق » قرعون
ما احناش عاوزينه دا وإد أهبل » (١٨) .

ولم يقتصر نشاط يعقوب صنوع على التشهير بالخدوي توفيق
والدعوة لحليم في الصحف بل تطرق ذلك النشاط إلى المسرحيات ففي
مسرحية « الواد المرق وأبو شادوف الحدق » أوضح يعقوب صنوع
عن أمه في انتصار الفلاحين المصريين على يد البرنس حلیم وندد
بالخدوي توفيق ، وذكره بما حدث لوالده وأشاد بحليم فقال « الظالم
يا توفيق آخرته ده والكريم الحلیم يحميه رب البرية » (١٩) .

(١٤) جيمس سائوا : مصر للمصريين . باريس — العدد العاشر ١٨٨٩
كما أطلق يعقوب صنوع على الفلاح المصري اسم « أبو العلب » وصور
مصر بالبقرة الحلوب وتوفيق بيحلبها ، وفي يده كوز. ويقول لوالده اسماعيل:
« يا بابا ما بينزلش من بزها ولا نقطة لبن » فقام أبو الحلم (يقصد البرنس
حلیم) بنقشه من ذراعه وهو يقول له حرام عليك يا كافر خلبها تشم نفسها .
ده ابوك مش حلبها بس دا مصها والا ما كانش يتنازل عنها ويتركها لك
يا مطبور .

انظر : جيمس سائوا . أبو نظارة زرقاء — العدد الأول من السنة
الثالثة في ٢١ مارس ١٨٧٩ .

(١٥) أبو نظارة زرقاء : العدد الرابع في ٢٤ أبريل ١٨٨٦ تحت عنوان
« حلم أبي نظارة » وأيضا د. ابراهيم عبيده : أبو نظارة أمام الصحافة
الفكاهية المصورة وزعيم المسرح في مصر ١٨٣٩ — ١٩١٢ القاهرة — مكتبة
الأدب . الطبعة الأولى ١٩٥٣ ص ٥٥ .

(١٦) أبو نظارة زرقاء العدد الثاني عشر في ١٨ ديسمبر ١٨٨٦ .

(١٧) أبو نظارة زرقاء . عدد ٩ يونيو ١٨٨٢ .

(١٨) د. ابراهيم عبيده : المرجع السابق .

(١٩) عبد الحميد غنيم : صنوع رائد المسرح المصري ، القاهرة — الدار
التومية للطباعة والنشر ص ٥٣ — ٥٨ .

أما حسن موسى العقاد فقد كان يجمع التوقعات من الأهالي بعزل الخديو توفيق وتولية البرنس حلیم ويرسلها إلى السلطان وكان يجري الترتيبات اللازمة لقدم حلیم باشا إلى مصر^(٢٠) ويتصل بالعراقيين من أجل ذلك ، كما أنه كان ينشر الشائعات بين الأهالي بخصوص موافقة السلطان والدول الأوروبية على تولية حلیم باشا وعزل توفيق^(٢١) ، وكانت الأميرة زينب هانم شقيقة الأمير حلیم ترسل إليه «مبالغ وافرة بحوالات على يد وكيلها عثمان فوزي باشا لأجل أن يدفعها لكبار رجال الحزب الوطني حتى يكونوا مع حلیم باشا» وكان حسن موسى العقاد يقدم هذه المبالغ في شكل هدايا^(٢٢) . مودعة به من جانب الأميرة زينب هانم وعثمان فوزي لحساب حسن موسى العقاد ولتكون هذه الأموال تحت تصرفه من أجل استخدامها في الأعداد لعودة حلیم إلى عرش مصر^(٢٣) .

وقد يدفعنا اتصال حسن موسى العقاد بالبرنس حلیم إلى التساؤل عن الطريقة التي تم بها ذلك ؟

الواقع أن حسن موسى العقاد كان ضمن أعضاء جمعية المعارف التي تكونت في عام ١٨٦٨ ، وأنه عن طريق محمد عارف باشا رئيس هذه الجمعية تمت الاتصالات بين العقاد وغيره من أعضاء الجمعية بالبرنس حلیم^(٢٤) .

(٢٠) محافظ الثورة العربية : محظنة رقم ١٠ دوسيه ١٢٢/ب .
(٢١) نفسه .

(٢٢) اسماعيل سرهنك : المرجع السابق ج ٢ ص ٤١٣ .
وللاشارة على ذلك انظر : محافظ الثورة العربية - محظنة رقم ١٠ دوسيه ١٢٢/ب .
وايضا :

Broadley : How We Defended Arabi and his Friends p. 359.

(٢٣) د. لطيفة سالم : القوى الاجتماعية في الثورة العربية . القاهرة
الهيئة العامة للكتاب ١٩٨١ ص ٢٤٦ .

(٢٤) الرفاعي : عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٤٤ .

وقد ترددت الشائعات بأن عزل الخديو متفق عليه بين نواب الأمة ، وأن هؤلاء النواب سوف يصدرن قراراً من الأمة المصرية بخلعهم وتنصيب حكومة جمهورية يكون عرابي رئيسها^(٢٥) . وقال البعض أن الباب العالي سيقوم بتنصيب الأمير عباس حامي نجل الخديو توفيق مع تعيين قائمقام ينوب عنه في الوزارة ، وذهب البعض الآخر إلى أن الدول الأوروبية عدا فرنسا ترغب في إعادة الخديو السابق اسماعيل إلى الحكم^(٢٦) ، وقال آخرون أن البرنس حليم هو الذي سيعين حديويًا على مصر والدول الأوربية موافقة على ذلك عدا إنجلترا^(٢٧) وان البرنس حليم سيصل من الآستانة إلى القاهرة^(٢٨) بعد اقتناع إنجلترا بذلك ،

-
- (٢٥) محافظ الثورة العربية ، محفظة رقم ٨ دوسيه ٧/٢/٥٢ .
- (٢٦) محافظ الثورة العربية : المحفظة السابقة الذكر .
والواقع ان الشائعات حول عودة الخديو السابق اسماعيل قد ترددت في تلك الفترة ، وقد ذكرت هذه الشائعات ان اسماعيل اعترض العودة إلى مصر بتأييد من الأجانب ليعلم استقلاله ، كما أنه حرض الشريف عبد المطلب لإعلان خلافته في الحجاز ، وأنه أرسل شخصاً اسمه واصف إلى لندن لشراء أسلحة .
- انظر : محافظ أبحاث ، محفظة ١٦٤ عابدين — ملف ثابت باشا
بذكرة من ثابت باشا بتاريخ ٧ محرم ١٢٩٩ .
- كما ذكرت شائعة أخرى ان شخص اسمه بارات أوفد بن طريف اسماعيل إلى مصر ، وهناك شائعة تذكر ان اسماعيل أرسل أسلحة إلى جبارك مصر .
- محافظ أبحاث — محفظة ١٦٣ عابدين — ملف ثابت باشا .
- انظر : محافظ أبحاث ، محفظة ١٦٣ عابدين — ملف ثابت باشا .
- ويذكر أحمد شفيق ان المسيو ماكس لافيزون الفرنسي ، والشايخ البحراوي من العلماء ، ومحمد راتب السردار وغيرهم كانوا يسعون لإعادة اسماعيل إلى عرش مصر .
- أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ج ١ القاهرة — مطبعة مصر ١٩٣٤ ص ١٢٣ .
- (٢٧) محافظ الثورة العربية . محفظة رقم ١٠ دوسيه ١٢٣/ب تحت عنوان الأوراق المضبوطة لدى حسن موسى العقاد .
- (٢٨) نفسه .

وذهب البعض إلى أن عثمان باشا نجل الأمير مصطفى فياضل قد ذهب إلى أوروبا لاقتناع بعض دولها على تقليده عرش الخديوية موضحاً أحقيته في ذلك (٢٦) .

والواضح أن أكثر الشائعات ذبوعاً كانت الشائعة الخاصة بحضور البرنس حلیم إلى مصر فقد كانت هذه الشائعة تقع بين الناس موثقة القبول والصدق ، وكانوا ينتظرون حصولها من وقت لآخر (٢٧) وساعد على ذلك أن البرنس حلیم كان له اتباع كثيرون في مصر يروجون له بين الناس هذه الشائعات (٢٨) حتى بلغ أمر بأن تبني دعوتهم أحد علماء الأزهر وهو الشيخ عليش مفتي السادة المالكية الذي طالب بالدعوة إلى تعيين حلیم باشا خديويًا على مصر بدلاً من توفيق (٢٩) .

ونتيجة لتداول الشائعات ضد الخديو توفيق في مصر أبلغ الخديو قناصل الدول بالموقف وأوضح لهم أن أخباراً وصلته تبين أن العسكريين ينوون عزله وإعلان حلیم باشا خديويًا على مصر (٣٠) .

كما أرسل الخديو تلغرافاً إلى الأستانة يعبر عن استيائه من عذه الشائعات ، ويؤكد وثوقه كل الثقة « بالحضرة السلطانية وبجميع أركان دولته العظام » . كما أوضح الخديو في تلغرافاته أن « حلیم باشا مكروه ومبغوض عند جميع أهل مصر . ومعروف عند جميع العلماء بأنه

-
- (٢٩) محافظ الثورة العربية ، محفظة رقم ٨ دوسيه ٥٣/د/٧ .
(٣٠) محافظ الثورة العربية . محفظة رقم ١٠ دوسيه ١٢٣/ب .
(٣١) محافظ أبحاث . ملف ثابت باشا . تلغراف من الخديو إلى الملك باشا في ٥ محرم ١٢٩٩ .
(٣٢) محافظ أبحاث ، محفظة ١٦٣ عابدين ، تلغراف بتاريخ ٧ يونية

١٨٨٢ .

(33) Blunt : Secret History of the English Occupation of Egypt London p. 297.

لا دين له^(٢٤) وأن العلماء في مصر قد عقدوا اجتماعا أوضحوا فيه ذلك^(٢٥) ثم عبر الخديو عن خضوعه وولائه التام للسلطان حتى ذكر أنه « رغب في أن يمسح وجهه في تراب قدمي جلالة السلطان »^(٢٦) .

والموضح أن السلطان عبد الحميد لم يكن اديه أى نوع من الثقة في الخديو توفيق ، وأنه كان يرغب في احلال حلیم محله^(٢٧) ، وقد ساعد على ذلك وجود حلیم في الاستانة واتصالاته برجال الملبين .

ومن وثائق الثورة العرابية يتضح أن مجلس النظار العثماني اجتمع للنظر في مسألة عزل الخديو توفيق . وتولية البرنس حلیم وبعد المداولة في هذا الأمر استقر الرأي على وجوب خلع الخديو توفيق من الخديوية المصرية وتولية البرنس حلیم . وتم عمل قرار في هذا الخصوص ولكن معارضة فرنسا الشديدة لتدخل السلطان في شؤون مصر^(٢٨) واقترحها بعقد مؤتمر في الاستانة لتسوية المسألة المصرية ، وموافقة إنجلترا على هذا الطلب جعل السلطان يعدل عن قرار عزل الخديو توفيق ويحتفظ بالأخوان الراهنة في مصر حتى لا يعطى للدول الأوروبية مجالاً للتدخل . فقد اعتبر أن المسألة المصرية مسألة داخلية لا يصح لفرنسا أو إنجلترا التدخل فيها . وعلى ذلك رفض السلطان اقتراح عقد مؤتمر في الاستانة ، وقام بتأييد سلطة الخديو توفيق حتى يثبت للدولتين أن الأحوال في مصر مستقرة .

ولكى ينال البرنس حلیم موافقة الدول الكبرى على تعيينه خديوياً

(٢٤) دار الوثائق : محفظة ١٣. ابحاث . الك

(٢٥) محافظ ابحاث : المحفظة ١٠٦. كراسة ط

(٢٦) نفسه ، برقية رقم ١٤ ص ١٩ .

it., p. 305.

- على مصر ، قام هو وزوجته بزيارة السفارات الأجنبية بالاستانة^(٣٩) .
وعرض آراءه ومقترحاته حول الحالة الحاضرة فى مصر^(٤٠) .

ونتيجة لذلك تباحثت الدول فى أمره^(٤١) حتى وصل الأمر أن دى
فريسينيه كتب بصفة سرية الى جرانفيل يقترح عليه استبدال توفيق
بالبرنس حلیم ، ولكن هذا الاقتراح رفضه جرانفيل^(٤٢) كما أن النمسا
وألمانيا وجدا أن العلاج الناجح لحل المسألة المصرية هو استبدال توفيق
بحليم خصوصا وأن المصريين كانوا سيقبلون هذا الوضع بارتياح^(٤٣)
فعدد كبير منهم كانوا يعرفون أن حلیم شخص أكثر ذكاء وأسمى فى
آرائه السياسية والليبرالية من توفيق^(٤٤) وبرغم ذلك فان العربابين لم
يعتبروا تولية حلیم الحل الأمثل للموقف فى مصر^(٤٥) .

وحاول حلیم السفر الى أوروبا لعرض قضيته والتباحث فى أمر
تعيينه خديويا مكان توفيق لكن السلطان رفض السماح له بالسفر^(٤٦)
مما سر توفيق ، واعتبر ذلك بمثابة بعد نظر وسداد رأى من جانب
السلطان^(٤٧) فأرسل الى السلطان يعبر عن شكره على كريم عطفه

(٣٩) محافظ أبحاث ، محفظة ١٦٤ عابدين ، برقية من ثابت باشا
الى طلعت باشا .
(٤٠) البرقيات المتبادلة بين القاهرة والاستانة اثناء الثورة العربية
برقية من القيوكتخدا بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٨٨١ .
(٤١) محافظ أبحاث ، محفظة ١٦٤ عابدين من ثابت باشا الى طلعت
باشا .

(٤٢) أحمد شفيق : المرجع السابق ج ١ ص ١٢٣ .

(43) Blunt : op. cit., p. 276.

(44) Ibid p. 262.

(45) Ibid.

(٤٦) محافظ أبحاث ، محفظة ١٦٤ عابدين . من ثابت باشا الى طلعت
باشا .

(٤٧) محافظ أبحاث . محفظة ١٦٣ عابدين ، برقية من الخديو الى ثابت
باشا بتاريخ ١٦ محرم ١٢٩٩ هـ .

ولطفه ، موضحا أنه يريد أن يمرغ وجهه ونظره فى تراب الاعتساب السلطانية حتى يفوز بالشرف(٤٨) .

والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل كان قادة الثورة العرابية على اتصال بالبرنس حلیم ، ومستعدون لتوليته اريكة الخديوية بعد عزل توفيق ؟

أوضح سليم النقاش أن عرابى لم يرتبط بأى صلات مع البرنس حلیم(٤٩) .

كما ذكر الرافعى أنه عندما تكلم البعض مع عرابى فى ذلك الموضوع « صرح غاضبا بأنه من الواجب التخاص من أسرة محمد على بأكملها »(٥٠) .

والواقع أن عرابى لم يكن ينتمى الى مجموعة حلیم فى مصر ، وفى نفس الوقت لم يكن يعارضها خصوصا بعد أن ظهر انحياز الخديو للإنجليز(٥١) لذلك تمت اتصالات سياسية بين العرابيين وحلیم ، وكان من رأى العرابيين اتخاذه كورقة سياسية يمكن استعمالها فى الوقت المناسب ويؤكد وجهة نظرنا أن الخديو توفيق قد أكد فى برقية منه الى ثابت باشا أن عرابى وبعض أمراء الآليات تقابلوا مع مندوب البرنس حلیم ، كما أنه قد حدثت مقابلات أيضا بين رفقاء عرابى وحلیم باشا(٥٢) .

(٤٨) نفسه .

(٤٩) سليم النقاش : مصر للمصريين ج ٧ .

(٥٠) الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ، القاهرة — النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ص ٢٦٤ .

(51) Blunt : op. cit., p. 262.

(٥٢) محافظ إبحاث : المحظلة ١١٦ تطرف من الخديو الى ثابت باشا بتاريخ ١٤ فبراير ١٨٨٢ .

وتوضح وثائق الثورة العربية أن محمود سامي البارودي اتصل بعثمان باشا فوزى أحد أعوان البرنس حلیم وسأله عن سن حلیم باشا وطلب منه صورة له فأعطاه ثلاثة رسومات احتفظ البارودي بواحدة وأعطى لعرابي واحدة أما الصورة الثالثة فأعطاها البارودي لأحد الضباط (٥٣) .

وقد أكد ميخائيل شاروبيم أن البرنس حلیم تقرب من عرابي ورجاله بالمهدايا النفيسة والتحف الجليلة عن طريق أحد خدام بيت أبيه حتى « يستغزه الى نصرته برد تاج الوراثة اليه .. وكان عرابي يسايره ويكلف في الرد عليه ويمثيه بالأمانى الكثيرة » (٥٤) .

ومما يوضح أن العرابيين كانوا على اتصال بأعوان البرنس حلیم كما أنهم لم يستبعدوا تماما فكرة تعيينه على الخديوية المصرية مكان الخديو توفيق إذا اضطرتهم الظروف الدولية الى ذلك ، فكان تولية حلیم هو أحد البدائل أمامهم ، وورقة سياسية يلعبون بها أمام كل من الخديو وأوربا . فعندما احتدم النزاع بين الخديو والعرابيين حول التصديق على الأحكام الصادرة على الضباط الجراكسة في المؤامرة الجركسية ضد العرابيين جاهر بعض العرابيين برغبتهم في خلع الخديو توفيق وتعيين البرنس حلیم مكانه .

وبعد استقالة وزارة البارودي كتبت عرائض في منزل عرابي وقع عليها الأهالي بخلع الخديو وتعيين البرنس حلیم (٥٥) .

-
- (٥٣) محافظ الثورة العربية : محفظة رقم ١٣ دوسيه ٢٣٠ ج . محشر .
استجواب عثمان باشا فوزى وكيل دائرة دولتو زينب هانم وأتجه هانم .
(٥٤) ميخائيل شاروبيم : الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث ج ٤ -
القاهرة ، المطبعة الاميرية ص ٢٧٢ .
(٥٥) الرافعي : المرجع السابق ص ٢٦٧ ، اسماعيل سرهنك : حقائق
الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٨٩ .

ولما تطورت الأمور بين عرابي والخديو توفيق الى اتحد الذي
رغض فيه عرابي تنفيذ أوامر الخديو واتهمه بمخالفة الشرع والقانون
ددد العرابيون بالدعوة الى أن يحل حلليم مكان توفيق .

واستمر العرابيون يتخذون من حلليم بائسا ورقة للمساومة ولكن
نتيجة لتطور الأمور وانكسار الثورة العرابية واحتلال الانجليز مصر
أصبحت السيطرة الحقيقية فى يد المعتمد البريطانى واستند الخديو
توفيق على ذراع انجلترا القوى فأصبح فى مأمن من مؤامرات الاستانة،
وبذلك حسم الصراع لصالحه .

وابتعد حلليم عن الشؤون المصرية ورضى بتعيينه عضوا فى مجلس
شورى الدولة بالاستانة^(٥٦) ، وبعد تولى عباس الثانى اريكة الخديوية
المصرية عام ١٨٩٢ قام بتحسين العلاقة مع البرنس حلليم وكان يزوره
فى الاستانة كلما سافر الى هناك^(٥٧) وظل حلليم مقيما فى الاستانة
حتى أدركته المنية فى يونية ١٨٩٤ ، فأمر الخديو بنقل جثمانه الى مصر
حيث دفن فى مقابر العائلة الخديوية^(٥٨) .

(٥٦) الياس زاخورة : المرجع السابق ج ١ ص ٥٤ .

(٥٧) احمد شفيق : المرجع السابق ج ٢ ص ١٠٠ .

(٥٨) د. رعونف عباس حامد : مذكرات محمد فريد . القسم الاول -

تاريخ مصر من ابتداء ١٨٩١ . القاهرة - عالم الكتب ١٩٧٥ ص ٢٠٦ .

موقف الدولة العثمانية من الثورة العراقية

دكتور عبد المنعم إبراهيم النسوقي الجبيلي
كلية التربية - جامعة القاهرة

مقدمة :

وجدت الدولة العثمانية في قيام الثورة العراقية والنزاع المستمر بين الخديو والعراقيين فرصة للتدخل في شؤون مصر الداخلية بحجة فض النزاع وإقرار الأمور ، ومع ان السلطان عبد الحميد الثاني وجد في الثورة فرصة للانتعاش من مزايده الاستقلال الداخلي الذي حصلت عليه مصر فانه أثر التريث في الانضمام الى أي من الطرفين ، ورغم انه لم يكن مرتاحا للحركة الوطنية المصرية لانه كان يخشى انتشار مفهوم الثورة منها الى باقي ولايات دولته نظرا لموقع مصر الجغرافي في وسط ممتلكاته بالإضافة الى ان الثورة العراقية طرحت مهامهم تستكرها الدولة العثمانية كل الاستنكار مثل الدعوة الى النظام النيابي ومكرة توزيع الارض على الفلاحين الا انه حاول اللعب على الطرفين والوقوف مع الجانب التي ترجح كفته في النزاع فكانت هناك اتصالات بين رسله وبين عرابي كما كانت هناك اتصالات بيته وبين الخديو ، ورغم ان الخديو قد ارسل الى السلطان يطلب ارسال قوات تركية الى مصر للقضاء على الثورة فان السلطان خشي من رد فعل الدول الأوروبية خصوصا وأن خبرة الدولة العثمانية في المصادم مع الدول الأوروبية منذ مؤتمر برلين جعلتها تتردد في انتهاك هذه الفرصة .

ومن الطبيعي ان يكون حجر الزاوية بالنسبة لكتابة هذا الموضوع

هو الوثائق التركية لذلك فقد رجعت الى الوثائق التركية المترجمة الى العربية والموجودة بدار الوثائق بالقاهرة تحت عنوان ملف ثابت باشا المحفوظات ١٦٣ ، ١٦٤ مائة الف ومحفظة ١١٦ ابحك ، ودفتر ٢٨٧ عابدين بالاضافة الى محتاج الثورة المرابية وبعض الراجع الاخرى .

وملف ثابت باشا يحتوى على الكثير من الوثائق الخاصة بالثورة المرابية ووجهت نظر الدولة العثمانية تجاهها .

وثابت باشا كان يهدل مندوبا للخديو بالاستاتة اثناء قيام الثورة المرابية وتفكره الوثائق يانه « قيوكتخدا الحضرة الخديوية بالاستاتة » .
ومحور الموضوع الرئيسي يدور حول الرسائل المتبادلة بين الخديو والباب العالي والتي تبضح منها :

- ١ - موقف الدولة العثمانية من الثورة المرابية بعد مظاهرة عابدين وبعثة نظلى باشا .
- ٢ - موقف الدولة العثمانية من المؤامرة الجركسية .
- ٣ - بعثة برويش باشا حتى منشور السلطان باعلان عصيان احمد عربى .

حاولت الدولة العثمانية استغلال احداث الثورة المرابية لتثبيت سيادتها على مصر والانتقال من مزايا استقلالها الذى نالته فى عهد محمد على ثم فى عهد اسماعيل ، ومع ان الخديو توفيق قد ساعدها على ان تنتص من هذه المزايا بطلبه ارسال قوات تركية الى مصر لاضاد الثورة المرابية وكان فى ذلك فرصة لها لتحقيق اغراضها الا انها لم تستغل هذه الفرصة فائتاء قيام مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ ارسل الخديو ثلاث برقيات الى الباب العالي تتضمن الحادث ولكن بصورة مختصرة من غير ان يوضح فيها الاسباب الحقيقية له والباعث عليه ككتبا باسناد قيام الثورة الرضايلط برتبة « اميرالاي » (١) . تكن من استقالة الجيش المصرى اليه واحاط « بتعضيد من معظم ذلك الجيش بقصر عابدين .. وضرب الحصار حوله » (٢) وقد طلب الخديو « ارسال قوة عسكرية يبلغ مقدارها عشرين طابورا على جناح السرعة على ان

تكون قيساتها العنيفة منوطة به خاصة (٣) ولما كان الباب العالي يحثى رد قتل الدول الأوربية وخصوصاً انجلترا لو تدخل عسكرياً في مصر ، بالإسماحة الى ان الخديو توميق لم يكن ينظروا اليه في الإستانة بعين المطف والرضيا (٤) فقد أرسل الباب العالي يطلب معلومات أكثر وضوحاً عن الحادث حيث ذكر في برقية له الى الخديو « وبما انه ليس من المحتل قط ان لا يكون لديكم إنباه عن ظروف وملامسات تلك الثورة العسكرية تبيل إجتماع الجنود على الثورة والإخطابة بسموكم في تصوكم وتضيق الحصار عليه فضلاً عن ان حكومتكم لا بد لها من علم بالظروف والأحوال التي ساعدت على تكوين هذا الحادث .. فإزاء ذلك لا يسع الباب العالي ان يقوم بأى يسي لإغادة الابن الى تصابه وتسوية المسألة وفق الاعتبارات المحلية مالم يحصل أولاً على المعلومات الوثيقة من سموكم لتجلو الأحوال جلاء تاماً » (٥) .

وكان رد الخديو على هذه البرقية قوله : « ان الحكومة لم يكن عندها أى نيباً او علم سابق بهذا الموضوع ، وكل ما هنالك اننا نعلم ان هناك صحيفة تدعى (ابو النظارة الزرقاء) يصدرها في باريس باللغة العربية العمية رجل يدعى (جيمس) (٦) له اتصال وثيق بطبيب عمى سمو عبد الخليم باشا وان آلاف من اعداد هذه الصحيفة تدخل مصر بطرق مختلفة ، وتوزع سراً ونجاناً بين صفوف الجيش .. ولا يخفى على احد ان الذى يتفق بنسخها على طبع ونشر هذه الصحيفة هو سمو عبد الخليم باشا لا غير وبما ان الدعوات التي تقوم بها هذه الصحيفة والأفكار التي تبثها تتفق تمام الإتفاق مع الأفكار السائدة الآن في البيئات الناعمة والطبقات الغنيرة في الجيش فيمكننا ان نقول ان لدعاية هذه الصحيفة دخلاً كبيراً في قيام هذه الفتنة العسكرية (٧) ثم ذكر ان الحادث انتهى من غير حاجة الى اتخاذ تدابير شديدة نحو ازالته (٨) ثم أكد في برقية اخرى « ان الجيش الآن في غاية الخضوع والطاعة وان سائر الامور والشئون جارية على مايرام » (٩) ومع ذلك فان الحكومة التركية رأت فيما حدث ذريعة للتدخل السياسى في شؤون مصر وانتحال حق الاشراف عليها .. على الرغم من محاولات انجلترا للتضييق على السلطان للإحالة دون ذلك (١٠) حتى يمكنها العمل منفردة في مصر .. فقررت ارسال

لجنة إلى مصر للنظر في الحوادث الأخيرة، وقد عرفت هذه اللجنة بالوفد
العثماني وكانت برئاسة علي نظامي باشا سرياور السلطان عبد الحميد
وعلى بك فؤاد من أعضاء مجلس شورى الدولة (١١) ونجل علي باشا
المسدر الأعظم المشهور ومعهما تدرى بك وصفر أفندي وسيف الله
أفندي من ياوران السلطان .

يذكر الأستاذ عبد الرحمن الرفاعي في كتابه « الثورة العربية
والإحتلال الإنجليزي » أن هذا الوفد تحرك من الإسكندرية يوم ٢ أكتوبر
١٨٨١ قاصداً مصر ولم يسبق تأليفه مخابرة بين حكومة الاستانة والحكومة
المصرية حتى تعرفت الحكومة من ابغاده (١٢) ولكن الوثائق التركية تثبت
أن الخديو كان يعلم عن طريق نفديه في الاستانة (١٣) بتشكيل الوفد
والمهمة التي سيكلف بها (١٤) .

جاء الوفد إلى الإسكندرية يوم الخميس ٦ أكتوبر ١٨٨١ ووصل
أعضاؤه إلى القاهرة في مساء ذلك اليوم ونزلوا ضيوفاً على الحكومة
المصرية وفي صبيحة الجمعة ذهبوا إلى سراي الاسماعيلية لمقابلة
الخديو فاستقبلهم بالترحاب وابلغوه أن الغرض من حضورهم هو اظهار
الثقة به وتثبيت مركزه (١٥) كما ذهب نظامي باشا إلى ديوان الحربينة
يقصر النيل حيث استقبله محمود سامي البارودي ناظر الجهادية وهناك
التي خطبها في كبار الضباط حثهم فيه على طاعة الخديو (١٦) وزد عليه
طلبه عصمت بخطاب أعلن فيه خضوع الضباط والجنود للسلطان
والخديو (١٧) .

ولما زار الوفد العثماني شيخ الجامع الأزهر وبعض الشيوخ
وجدوا في حديثهم أطراء على الجيش وأعماله (١٨) وظل رجال الوفد
العثماني في مصر بضعة عشر يوماً بين مقابلات وولائم ، واجمعت كلمة
من حادثهم على أن البلاد ليس فيها أي اضطراب وأكد لهم الخديو أن
الجيش على طاعته وبذلك انتهت مهمتهم (١٩) وغادر الوفد القاهرة إلى
الإسكندرية في ١٨ أكتوبر ١٨٨١ (٢٠) .

والجدير بالذكر أن إنجلترا وفرنسا استستا من حضور الوفد
العثماني إلى مصر على غير اتفاق معهما واعتبرتا تدخلهما في شئون مصر

الداخلية. وطلبنا من الحكومة الميمنية تقصير مدة اقامته (٣١) كما انتهى السير ادوارد مالت التوصل الانجليزي الفرصة لكي تبسط بلاده نفوذها على مصر فطلب من حكومته ارسال بارجة حربية الى مياه الاسكندرية فاجابته الى طلبه كما اتفقت مع الحكومة الفرنسية على ان ترسل هي الأخرى بارجة على أن تنسار البارجتان الاسكندرية حين مبارحة الوفد العثماني مصر ، وفعلا حدث ذلك حيث غادرت البارجتان ميناء الاسكندرية في ٢٠ أكتوبر ١٨٨١ في غداة سفر الوفد العثماني (٣٢) .

هذا عن موقف الدولة العثمانية تجاه الثورة العربية عقب مظاهرات عابدين ابا عن موقفها من المؤامرة الشركسية (٣٣) فانه بعد ان ارسل الخديو الى السلطان بخصوص هذا الموضوع وطلب منه ارشاده حول الاحكام النافية التي اصدرها العربيون ضد الشراكسة ويقترح عليه عدم تنفيذ الاحكام (٣٤) وقف السلطان مؤيدا لموقف الخديو وسر من ذلك سرورا بالغا وتنهى للخديو الخبر وقال « انه طالما يظل الخديو مقبلا على اخلاصه الذي اظهره للدولة العلية حتى الآن .. فانه سيجد الدولة العلية مساعدة ونصره له على الدوام » (٣٥) .

ومع ان الاحوال في مصر كانت غير مستقرة فانجلترا تهبط للتدخل العسكري والخديو يشكو للسلطان من العربيين ويطلب منه - عن طريق رسالة بعث بها الي ثابت باشا بالاستانة - ارسال قوات عسكرية تركية تتف امامهم بقوله « وقد راح هؤلاء الضباط (يقصد العربيين) يعملون للوصول الى اهدافهم بالتدريج كلما سنحت لهم الفرصة الى ان بلغوا حد السيطرة على جميع القوات العسكرية ، وهم الآن جارجون عن الطاعة كل الخروج وليس لهذا الوضع من علاج سوى اخذنا هذه القوات العسكرية من ايديهم وردھا الى التتاون والنظام وهذا يحتاج الى قوة عسكرية تتف امامهم » (٣٦) ولكن السلطان تردد في ارسال جنود عثمانيين الى مصر خشية الصدام مع الدول الاوربية كما ان معظم المشايخ المسلمين اوضحوا للسلطان بان « ارسال عسكري المسلمين لقتال اخواتهم المسلمين يضر بتمام الخلافة » (٣٧) يضاف الى ذلك ان السيد احمد امجد وهو من الشيوخ المقربين من السلطنة كان قد مدح عرابي امام السلطان (٣٨) وتكره بانه الرجل الذي يرجى منه الخير لمصر .

ولمعالجة الموقف استقر رأي السلطان العثماني على إرسال بعثة إلى مصر نتيجة إعادة الأمور عليها التي تضمنتها، ومعالجة الأحوال على أساس الاستنادة من الخلاف بين الخديو والمرابيين ابتغاء تثبيت سلطة الدولة في مصر (٣٦) وفي السابق من شهر يونية ١٨٨٢ عين السلطان مصطفى درويش باشا أكثر رجال الحاشية السلطانية مندوبا عثمانيا ساميا وعمه اليه برئاسة وقد يكون كما تذكر الوثائق التركية من « نجله، وأربعة من اليساوران وكتابه الخاص ونحو تسعة من خدم المابين (٣٧) .

وجمموع الذين استنابون في معيته حوالي ثلاثين نفرا ، وفوق ما تقدم سيكون في زفته حلى بك مدير مكتب تلغراف المابين السلطاني ، وان الذين سيرايمونه من يعرف اللغة العربية « (٣٨) وأمره بالسفر إلى مصر، وكانت خطة الوفد ان يتظاهر درويش باشا بأنه جاء لتثبيت سلطة الخديو، وان يتعامل بسعد باشا أحد أعضاء الوفد مع عزابى ويوضح له رضى السلطان عنه (٣٩) .

وصل درويش باشا والوفد المرافق له إلى الاسكندرية يوم الاربعاء الموافق ٧ يونية ١٨٨٢ على ظهر اليخت السلطاني عز الدين (٣٣) فأرسل الخديو وفدا برياسة على ذو الفقار باشا لاستقباله على ظهر اليخت كما أرسل عزابى من طرفه يعقوب سلمى باشا وكيل نظارة الجهادية لاستقبال الوفد ، ولكن الخديو اعترض على ذلك وأبلغ محافظ الاسكندرية بعدم موافقته على اجراء أى شئ من رسوم الاستقبال من طرف المرابين للبعثة ، ولكن يعقوب باشا لم يكثر بالأمر بحجة انه وفد من طرف ناظر الجهادية لا يمنعه عن ذلك سوى أوامر منه (٣٤) فعلا تم استحضار ثلاثة توارب احدها لوكيلى الجهادية والبحرية والثاني لمحافظ الاسكندرية والثالث لمدوبى المعية ، وساروا سويا ولكن قارب الوكيلين سبق القارين الآخرين ووصل قبلها بمدة ربع ساعة تقريبا وعند وصولها استقبلها دولتو درويش باشا بأعظم قبول واخطى بسعادة يعقوب باشا وتحديث بمهليا ، وبعدها وصل القاريان الآخزان وكانت مقابلتهما اعتيادية، ولما ركب ذو الدولة درويش باشا فى الزورق المعد لركوبه استنصب معه بسيادة يعقوب باشا وكيل الجهادية فقط وترك الآخريين (٣٥) .

وفي اليوم التالي سافر درويش ووفده إلى القاهرة فجمع بأمر

الضيطة بها بعض الامالى ومرهم بالطريق الذى يمر منه درويش باشا
« فاجذوا يرغمون اصواتهم بدمج احمد عرابى وخنفس ثيان الخديو » (٣١)

ولما ذهب درويش باشا الى سراى الاسماعيليه قابله الخديو
بالترحاب (٣٧) ورد له الزيارة بسراى الجزيرة ، وهو المكان الذى اعد
لائمة الوفد (٣٨) كما حضر الى سراى الجزيرة بعض العلماء للترحيب
بدرويش باشا وتحدث « الشيخ عليش والشيخ حسن العدوى وغيرهم من
المتنمين الى عرابى عن مسأوىء الخديو » (٣٩) .

لقد كانت خطة البعثة العثمانية التظاهر لكل من الخديو والعرابين
بان السلطان معه ، وكان من مظاهر ذلك ان الوفد طلب نحو مائتى نيشان
للضيطة ككافاة لهم على اخلاصهم للسلطان كما طلب لعرابى النيشان
المجيدى من الطبقة الاولى ، ولكن بعد ان منح الخديو درويش باشا
رشوة قيمتها خمسون الف جنيهه بالاضافة الى هدايا قيمتها خمسة
وعشرون الف جنيهه (٤٠) انضم درويش علانية الى الخديو وظهر ذلك فى
محاولاته المتكررة للتخلص من عرابى فطلب اليه ان يسافر الى الامتاتة
لشكر السلطان على منحه الوسلم (٤١) وان يترك له ديوان الجهادية وقد
فطن عرابى الى العواقب المترتبة على تركه ديوان الجهادية والسفر
الى الامتاتة فقال له « خذ عليك عهدده حفظ الارواح وانشر ذلك فى
الجزائر العربية والتركية والافرنجية وانا اتوجه الى الحضرة
الملوكية » (٤٢) ولما تردد درويش باشا فى الامر ذكر له عرابى بان
الامة لا تسمح له بمغادرة البلاد (٤٣) وانه لا يستطيع امام الائمة الراهنة
التي نشأت من جراء عدوان الاتجليز الذهاب الى اى مكان وانه سيمبر
عن عرفاته للسلطان بالجميل برقيا (٤٤) .

ولما فشل درويش فى مبتغاه اعطى اوامر سرية لقبطان الباخرة
التركية (عز الدين) التي اقلته الى مصر بالاستعداد للرحيل والاتلاخ الى
استنبول بمجرد مسعود عرابى الى ظهرها ثم ذهب الى عرابى واظهر له
وده وطلب منه زيارة السفن المصرية الراسية فى الميناء وكذلك الباخرة
التركية المذكورة ، ولكن عرابى اجس بالواامرة فذكر له انه ضابط مشاة
ولا شأن له بالبحر ، وان من الاولى عدم اضياع الوقت فى زيارة

السفن (٤٥) ولما أحس رجال الثورة العرابية ببول درويش باشا العذائية تجاه الحركة الوطنية أرسلوا عبد الله النديم إلى الأزهر حيث عقد اجتماعاً حضره حوالي أربعمائة آلاف شخص هاجم فيه البعثة التركية والخبديو مما هز مركز درويش باشا ، وأصر المجتمعون على رحيله ولو رفض يقض عليه ويرحل بالقوة (٤٦) .

أما عن موقف أحمد باشا عضو الوفد العثماني والمكلف بالتعامل مع عرابي فقد جمع توقيعات من الأهلان محررة ضد الخديو « ومختومة بالبن حاتم » (٤٧) .

استمر انحياز درويش باشا للخديو حتى بعد ضرب الإسكندرية ويتضح ذلك من رسالة بعث بها عرابي إلى أحد أصدقاء السلطان يشكو من انحياز درويش باشا إلى الخديو الذي انحاز إلى الإنجليز « مع أنه كان من الواجب على دولته ذمة وديانته أن ينصح الخديو بأن يتوجه بها إلى العاصمة مقر الحكومة ليكونا خلف الجيش لا أن يتركا جيش الإسلام الشاهاتي وينحازوا إلى جيش العدو الحارِب (٤٨) .

استمر طلب الخديو للجنود العثمانيين حتى بعد ضرب الإسكندرية ويتضح ذلك من رسالة بعث بها الخديو إلى ثابت باشا يقول فيها « وقد رنعت إلى الخضرة السلطانية بوساطتكم كما كتبت المرة بعد المرة أصف الحالة وجميع مقاصدي منسبه على رفع الأذى عن هذه البلاد السلطانية وتوطيد الأمن فيها . . . وهذا يتوقف على قدوم المسانكر السلطانية (٤٩) .

وبهنا هنا أن نذكر بأن كلا من بعثتي نظامي ودرويش لم تحضرا إلى مصر بنسبة خالصة بل حضرتنا لأنبات سلطة تركيا في مصر دون أن تعمل كلتاها أي عمل نافع لفض النزاع بين العرابيين والخديو أو لإنقاذ مصر من مطامع إنجلترا (٥٠) بل تركتا مصر أشد ارتباكاً وأكثر اضطراباً عما كانت عليه ، ويكفي أن نذكر أنه لم يكذب على حضور درويش باشا إلى مختبر بضعة أيام حتى وقعت مذبحة الإسكندرية في ١١ يونيو ١٨٨٢ ، وفي وجوده أيضاً استمر الموقف في التنازح وضربت الإسكندرية بمذامع الأسطول الإنجليزي وقد زاد موقف تركيا تجاه القضية المصرية تحفظاً

أبتناعها من بادئ الأمر عن الاشتراك في مؤتمر الاستتانة الذي عقد في عاصمتها في 1٥ يوليو 1٨٨٢ بفرض المحافظة على الأوضاع الحالية في مصر وتأييد سلطة الخديو ، وكان ابتناعها مبنيا على أن هذه المسألة داخلية بحتة ليس للدول الأوروبية شأن بها كما كانت تعتقد أن إيفادها درويش باشا إلى مصر سيحل المسألة المصرية وأن التحقيقات التي سيجريها ستسوى الموقف مما يعني عن عقد مؤتمر بشأنها ، ولما أدركت خطأها اشتركت في المؤتمر آخر الأمر ورضيت بإرسال جيش عثماني إلى مصر وفوضت درويش باشا قيادة الصلح العثمانية المقرر إرسالها إلى مصر وأبلغت الخديو بذلك (٥١) ولكن ثبات الأوان بضرب إنجلترا للاكندرية بدافع الأسطول وإرسال قواتها لاحتلال مصر ، وبينما كان الإنجليز يتقدمون في داخل البلاد كتكت المناوشات مستترة بين اللورد دفرين سفير إنجلترا في الاستتانة والباب العالي للاتفاق على خطة إرسال الجيش العثماني إلى مصر وكانت إنجلترا تقصد من هذه المناوشات إطالة الوقت وتعطيل إرسال جيش من تركيا حتى يتمع الثورة فلا يبقى سبب لاجيء ذلك الجيش (٥٢) وفي غضون ذلك استطاعت إنجلترا تغيير ميزان المعركة ليس حربيًا فقط بل سياسيًا أيضًا إذ استطاعت نتيجة للمحادثات المكثفة بينها وبين تركيا ، ونتيجة لجهود اللورد دفرين مندوبها في الاستتانة في الضغط على السلطان (٥٣) فقد ربطت إنجلترا موافقتها على إرسال عساكر عثمانية بإصدار منشور يتضمن أن عرابي عاصم ونائبه وان الدولة العثمانية ملتزمة بالمحافظة على الخديو وعلى نفوذه وإمتهانته (٥٤) وقد أصدر السلطان هذا المنشور مما قلب ميزان الحساس الشعبي واضع التأييد الإسلامي والعربي للثورة (٥٥) وكان له أسوأ الأثر في النفوس وقد نشر هذا الإعلان في جريدة الجوائب (٥٦) كما أرسلت نسخة منه إلى عرابي (٥٧) .

استغلت إنجلترا هذا المنشور في أضعاف الروح المعنوية لدى العرابيين فبادرت القوات الإنجليزية بإذاعة إعلان السلطان بعميان عرابي أثناء زحفه ما أدى إلى ابتاع الفرقة والانحلال في صفوف العرابيين وانصراف الناس عن تأييد عرابي في القتال وخصوصًا بعد أن تمكن أعوان الخديو وعلى رأسهم محمد سلطان باشا من توزيع

المنشور (٥٨) على التسييل والجنود الذين أحسوا بصدمة عنيفة بعد الإطلاح عليه مما أثر في روعهم المتوترة وضمنت حميتهم الدينية وسهل على الإنجليز دخول مصر (٥٩).

هذا عن الموقف الرسمي للدولة العثمانية تجاه الثورة العرابية أما عن الموقف الشعبي داخل الأستانة - وخصوصا موقف رجال الدين - فكان في معظمه بجانب عرابي فالشيخ علي أفندي مدرس السلطان والخائز على رتبة الصنوبر رتبة دينية) كان يشيد بعرابي ويثنى عليه ويقول عنه انه « رجل عظيم متدين » (٦٠) والشيخ نجيب أفندي الخائز على رتبة (الصنوبر) أيضا كان من مؤيدي عرابي والمدافعين عنه لدى السلطان (٦١) كما كان بعض خطباء المساجد بالأستانة يدعون لعرابي على المنابر .

ومما سبق يتضح ان موقف الدولة العثمانية الرسمي تجاه الثورة العرابية ابتداء من بعثة نظامي باشا وحتى اعلان السلطان منشوره بمصيان عرابي كان قائما على أهمية تثبيت السيادة التركية على مصر دون الاهتمام بمصالح مصر ومصيرها ، كما ان الدولة العثمانية حينما سحنت لها الفرصة بالتدخل المسلح في مصر بعد استنجد الخديو بها خشيت من رد فعل الدول الأوروبية وخصوصا انجلترا ازاء ذلك ، ولما ترددت تركيا في نجدة الخديو عسكريا وتباطأت في اتخاذ مواقف محددة طلب الخديو من الإنجليز المعونة وكان له ما أراد مما اتاح لانجلترا فرصة احتلال مصر .

المصادر

- (١) دار الوثائق القومية : محافظ أبحك - المحفظة ١١٦ دوسيه ٢ « الثورة المرابية » ترجمة دفتر ٢٨٧ « البرقيات الواردة من استانبول والصادرة إليها أثناء الثورة المرابية ١٢٦٨ هـ (١٨٨١ م) » .
- (٢) نفس المحفظة والدوسيه . برقية من الجناب العالي الخديو الى الباب العالي بتاريخ ١٥ شوال ١٢٦٨ (٦ سبتمبر ١٨٨١) .
- (٣) المصدر نفسه .
- (٤) عبد الرحمن الرافعي : الثورة المرابية والاحتلال الإنجليزي ، القاهرة - النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٤٩ من ١٦٦ .
- (٥) محافظ أبحك - المحفظة ١١٦ « البرقيات الواردة من استانبول والصادرة إليها أثناء الثورة المرابية » .
- (٦) يقصد جيمس ساتوا (يعقوب صنوع) .
- (٧) محافظ أبحك ، المحفظة ١١٦ ترجمة دفتر نمرة ٢٨٧ عابدين - البرقيات الواردة من استانبول والصادرة إليها أثناء الثورة المرابية - برقية من الجناب الخديو الى الباب العالي بتاريخ ١٧ شوال ١٢٦٨ هـ (١١ سبتمبر ١٨٨١) .
- (٨) البرقية السابقة الذكر .
- (٩) دا. الوثائق القومية . دفتر ٢٨٧ عابدين - صادر ٧ بتاريخ ٧ دى نمرة ١٢٦٨ (٣٠ سبتمبر ١٨٨١) .
- (١٠) Public Record office, F. O. 407/18 No. 45 Earl Cranville to the Earl of Dufferin, September 18, 1881 Telegraphic No. 436.
- (١١) الوقائع المصرية : الممدد ١٢٢٩ في ٨ اكتوبر ١٨٨١ .
- (١٢) عبر الرحمن الرافعي : المرجع السابق الذكر ص ١٦٥ .
- (١٣) عمل ثابت باشا مندوبا للخديو بالاستانة اثناء قيام الثورة المرابية واستمر هناك في المدة من شهر ذي الحجة ١٢٦٨ الى صفر ١٢٦٩ وبعد عودته شغل عدة مناصب منها مهردار خديو ثم عين في نظارتي الداخلية والوقاف وبعدها شغل منصب رئيس ديوان الخديو ، انظر : دار المحفوظات العمومية : اوراق ربط مغاش سعادة محمد ثابت باشا - دولا ب ٢٧ عين ٥٧٤ محفظة ٥٧٤ دوسيه ١٧٢٠ .

محاضر جلسات مؤتمر الاستانة عام ١٨٨٢ م

الجلسة الخامسة المنعقدة في ٢ يوليو

القسطنطينية ٢ يوليو ١٨٨٢

من : ايرل دوفرين

سلم تلغرافيا في ٢ يوليو

الى : ايرل جرانفيل

سيدي

يشرفني ان ابعث لسيادتكم نسخة من نص التلغراف (البرقية) التي وافقتنا عليها لارسالها الى حكومتنا الموقرة ، عقب انتهاء الجلسة الخامسة والخاصة بمصر اليوم .

توقيع دوفرين

هذه صورة طبق الاصل من البرقية المرسلة بواسطة الممثلين الستة للدول الكبرى ، عقب انتهاء الجلسة الخامسة الخاصة بالازمة المصرية في ٢ يوليو ١٨٨٢

لقد اعتبر المؤتمر المنعقد في جلسته الخامسة ، بان الموضوع الجدير بالبحث هو دعوة القوات التركية للتدخل في مصر ، ولقد استقر الرأي على ضرورة احاطة الباب العالي بانه من الحكمة الاشارة ، بان هذا التدخل امر مرفوض ان من واجب القوى العظمى اتخاذ اجراءات اخرى ، ان يحتفظ المؤتمر بالحقوق ليمبر عن رأيه عن هذا الموضوع في الوقت الحاضر ، واخيرا ان المؤتمر ليعتبر ان القرار النهائي الذي يمكن التوصل اليه الان هو تبليغ الحكومة العثمانية ولقد تحددت الجلسة التالية في ٥ من الشهر الحالي يوم الاربعاء .

(١) Blue Book, Egypt No I7, P. 67, 1882, doc. No 90

ان الجلسة الخامسة للمؤتمر ، والتي عقدت بالامس بشأن النظر في الازمة
المصريه ، كانت ناجحه حقا .

وفي بدايه الجلسة لقت مستردى نوايس انظار زملائه الاعضاء ، عن الامور
الاساسيه . حول تدخل القوات التركيه ، اذ انه أمر يخص المؤتمر ، اذ قصد
يوافق على الشروط الواجب اتباعها والالتزام بها .

هذه الشروط يجب الاتكون غير محددة بحيث تتيح فرصه للاتراك لفرض
نفوذهم على مصر ، وفي نفس الوقت الاتكون هذه الشروط متشده بحيث يجد السلطان
العثماني صعوبه بالغه لتنفيذ دعوة المؤتمر .

وقد لاحظ السفير الفرنسي ، باننا في الجلسة السابقه للمؤتمر ، واتثناء
مناقشات الشروط الواجب اتباعها من الناحيه الدستوريه ، توقفت المناقشات عند
" الشروط المخففه " واعنى بذلك الدعوة الموجهة للسلطات .

عند هذا المعنى السابق ، بدأت المحادثات تتركز حول هذه المسأله ،
ومن ثم تدخلت (دوفرين) لايجاد صيغه للكلمات التي يجب ان توجه بها الدعوه ،
خاصه فيما يتعلق باستدعاء القوات التركيه ، وكذلك وضع الخديوي لكي يمارس سلطاته
مع الحكومه العاديه المزمع تشكيلها من اجل عوده الاحوال في مصر الى سابق عهدها .

ولقد قيل لجميع زلاشي اعضاء المؤتمر هذه الصيغة ، ثم بعد ذلك اتفقنا جميعا لمناقشة " الدعوة " للمواقفة عليها من عدمه هذا في حالة توجيه الدعوة الواجب الابراق بها للباب العالي ، وانه في حالة رفض ارسال قوات الطوارئ هذه ففي هذه الحالة ، سوف تتحمل اوريا مسئولية التدخل في الشئون المصرية على عاتقها .

واقترح السفير النمساوي بان اى شى* يصل الى درجة التهديد سيترك اثرا سيئا للغاية . وعقب عليه مستر هير شغيلد بالمواقفة على هذا الرأى

ثم اننى لاحظت (لورد دونوفين) بان المناقشات تتركز بصفة خاصة حول ماهى الصيغه الواجب تبليغ السلطان بها ، فاذا استطعنا ان نقتنع بان سيادته متفاهم ، باننا سوف نحذف من اقتراضا - بطبيعته الحال - اى شى* قد يأخذه ضدنا ، اما في حالتشوت عكس ذلك من تشدده في موقفه ، فان وجهة نظرى هو العودة الى اتباع الخطوات السابق عرضها على المؤتمر .

واضفت قائلا ، ان رأى شخصى هذا سوف ابرق به الى حكومتى ولكنى

لست مفضا لاعلان هذا الرأى على المؤتمر .

ولقد شرح كونت كورتى مدى تعاونه بهذا الخصوص .

واوضح كذلك دى نواليس بان كلمة " التبليغ " *Comminatorire* " قد

تستعمل لطلب شى* افضل ، ففي هذه الحالة سوف نتعامل مع المشكلة المصرية على عاتقنا الخاص دون ان نلجا الى التهديد ، وفي نفس الوقت نبحث يقطع اساطيلنا الى يوقاز الدردينيل ، ان صياغة العبارة ، من الواجب ان يكون علا ينصت بالدبلوماسيه .

وفي نهايه الامر واقفنا على وجهة نظر كونت كورتى من حيث النص الذى سوف

نبحث به الى الباب العالي ، وهو النص الذى سوف نبحث به الى حكوماتنا الموقره مرتقا به الحل الذى توصل اليه المؤتمر .

ولقد ابدى بعض الزملاء تحفظا Favour ازا* الدعوة الموجه من قبل
المؤتمري الى السلطان ، ولكن هذا الامر يجعلنا اكثر تفاؤلا باننا سوف يوقفد الى
السلطان قبل ذلك أم رفض قبولى خطاب الدعوة ولكن وزاره الخارجيه لا تستطيع ان تقبل
استلام نصوص الملاحظات من السفراء ، عندئذ وصلنا الى نفس التساؤل ، والى نفسى
الاجابة من كونت كورتى . والسفير النمساوى اعلن بانه سيظل بدون أن يتلقى تعليمات
نهائيه حول هذه النقطة ، ولكنه هو شخصا يتحفظ ازا* توجيه الدعوة الى السلطان ،
ولقد احاط حكومته بان هذه المسأله الرئيسيه التى كان يود ان يتلقى اجابة نهائيه
فيها .

وأعلن مستراو onou بانه يتحمل المسئوليه ازا* مسأله توجيه الدعوه
الى السلطان لحين ورود موافقه الحكومات المعنيه .

ولكن ظل هير شفيدل ثابتا على موقفه دون أن يتلقى تعليمات من حكومته
وكان من المناسب فى جلسة المؤتمر التاليه التى حددت يوم ٢٥ الحالى ، الثلاثاء ،
بان مستردى تواليس سوف يضع صياغه " الدعوه " بالشكل القارب لما سبق ان عرضه
على المؤتمر ، واصبح الان لدينا قناه تامه بتبليغنا الموجه الى الباب العالى ، والذى
سيكون معدا مساء يوم الثلاثاء القادم ، انتظارا الى تلقى تعليمات حكوماتنا
فى هذا الشأن .

توقيع - دوفرين